

نشأة الفكر الهندي وتطوره في العصور القديمة

* عبد العزيز الركي

الحضارة لم تختلف لنا أى نوع من المخطوطات او الكتابات فلم يعرف الشيء الكثير عنها ، اذ أن ما وجد من اختام حجرية وما عليها من توقيش فشلت حتى الان كل المحاولات التي بذلت لفك رموزها ، ويعتقد ان هذه الاختام كانت تستخدم في الانفاس التجاربة وحاول بعض المفكرين ان يستشفوا مما وجد عليها من توقيش تمثل النبات والحيوان والأسنان وجود بعض السكان الأصليين (١) ومع ذلك فلا يدعى اى باحث ان معرفتنا بحضارة هارابا وموهنجو دارو اكيدة ، بل ان كل ما توصلنا اليه مختلف

مقدمة :

لم نعرف اقدم الحضارات الهندية الا بعد ان بدت الحضريات الابدية في الكشف عن مدينة هارابا Harappa بالبنجاب في شمال الهند في اواخر القرن التاسع عشر الميلادي .. وعن مدينة موهنجو دارو Mohenjo-Daro بالسند في اوائل القرن العشرين .. ولقد دلت الآثار التي عثر عليها من اوان فخارية وادوات معدنية واحسام حجرية ومن مبان ومدن على قسيط متقدم متطور من الحضارة والمدينة (٢) ونظراً لأن هذه

* عبد العزيز محمد الركي ، ليسانس أداب ، تخصص فلسفة في كلية آداب الإسكندرية ، له دراسات كثيرة عن الفكر الهندي القديم والوسبيط والحديث ، نشر عدة مقالات عن خصائص الفكر العربي في المجالات الثقافية المتخصصة ، من مؤلفاته كتاب « قصة بوذا » .

(١) Pigott, S. : Prehistoric India, Harmondsworth, (Penguin) 1950.

(٢) Buhler, G. : Indian Paleography, Bombay 1904

يجيدون صنع الاسلحة الحديدية من حرب وسهام ويقاتلون وهم يرکبون العربات الحربية .. فاسنوا على ممتلكاتهم من الماشي والأراضي وذكروا حصونهم والزموهم السكنى في الجبال والغابات .. وحرموا عليهم المدن والقرى الاهلة بالاريين واعتبروهم جنساً أقل من جنسهم ولا يستحق غير معاملة العبيد (٥) .

وأحسب أن هذه النظرة ترسم أول صورة للتفرقة بين البشر على أساس من اللون والجنس .. بين الأبيض والأسود .. بين الآري والدرافيدى .. لقد حرص الآريون على نقاء دم جنسهم فوضعوا أساس نظام الطبقات والطوابق الذي وضع الطبقات الآرية من الحكم ورجال الحرب ورجال الدين على قمة الطبقات بينما كان السكان الأصليون من التجار والزراع والصناع والخدم في أسفل الطبقات حتى انتهى الأمر بتكون اربع طبقات أساسية تدخل تحتها عثرات الطبقات الفرعية هي :-

- ١ - البراهمة وهي طبقة رجال الدين .
- ٢ - الكشاتريا وهي طبقة رجال القتال .
- ٣ - الفيسيا وهي طبقة التجار والزراع والصناع واصحاح المهن الحرة
- ٤ - السودرا وهي الطبقة التي يخدم افرادها بقية الطبقات (٦) .

ووضعت أنظمة سحدد العلاقات الاجتماعية بين هذه الطبقات بحيث يصعب تبادل العلاقات بينها وحرمت التزاوج من خارج الطبقة الواحدة حتى يحافظ الفرازة بنقاء الدم الآري .. فعاش السكان الأصليون في عزلة ومع ذلك فان رجال الدين كانوا يستعدون

الدراسات ليس الا مجرد تخمينات فامضه تحتاج لمزيد من اليقين والوضوح .. ولعل استمرار الحفريات وما قد توصل اليه من آثار يساعد في المستقبل على كشف المزيد من أسرار هذه الحضارة التي تبعد في القدم الى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد (٧) .

وأغلب ما وصل اليانا من هذه الحضارة كان عن طريق الكتابات الفيدية الاولى التي وصفها الفرازة من الآريين الذين اتوا عبر جبال شمال غرب الهند حوالي الألف الثالث قبل الميلاد ، وأسسوا على انقضائها حضارة جديدة بعد أن قضوا عليها وضربوا المدن وأحرقوها وحطموا السرى ودمروها ، ونزلوا لذبحها وتقطيلا في الأهالي من الشيوخ والنساء والاطفال الذين عتر على اعداد كبيرة من جماجمهم في البيوت والشوارع وقيعان البار مما دفع الكثرين الى الهرب من المدن والقرى الى الجبال والغابات يتبعون على وجوههم لا مأوى لهم غير مغارات البغال وكهوف الاشجار (٨) .

ومع ذلك فقد صور كتاب رج - فيدا Rigveda السكان الأصليين Dasyus على انهم على قسيط من القبح والجهل والبداءة : فهم سمر البشرة .. قصار القامة .. فطس الأنوف .. غلاظ الشعاء .. تسيطر المرأة على الأسرة .. يعبدون الإناث من الآلهة .. يقدسون عضو الذكر .. لا يُردون الشعائر الدينية .. ولا يحترمون القانون .. يملك الآترياء منهم الأرضي والماعشى ويقيمون في الحصون .. فلا نعجب اذا ما نظر الآريون الفرازة الى السكان الأصليين نظره متعالية لا يخلو من احتقار لعامة الناس وخذل على فادتهم .. وميزوا انفسهم عليهم لأنهم يبغض البشرة .. مقابلون أقوىاء

-
- | | | |
|-------------------|--|-----|
| Basham A. L. : | The Wonder That Was India, Sidgwick and Jackson, London 1954. | (٢) |
| Rawlinson H. G. : | India, A Short Cultural History, Cresset Press., London 1943. | (٤) |
| Macdonell A. A. : | India's Past, Oxford 1927. | (٥) |
| Hutton J. H. : | Caste in India, Cambridge 1946. | (٦) |

الدين باللغة السنسكريتية ، لغة الغرفة الآرية على فترات من الزمن في قالب تشعرى يضم ١٠٢٨ ترنيمه^(٦) ولذلك يعد رج - فيدا أطول من الآيادحة والأدوسا مجتمعتين . . . وكلمة رج Rig معناها اشعار وكلمة فيدا Veda معناها معرفة الحكمه . . بذلك يكون عنوان أول كتاب فيدي هو «أشعار الحكمه» وبداية تاريخها لم يتطرق على تحديد تاريخها فيرجعها المفكرون الهندو على راسهم «طيلاق» Tilak إلى ٤٠٠-٥٠٠ سنة ق.م بينما المفكرون الفريزيون يرجحون تاريخه إلى ١٢٠٠-١٠٠٠ ماي Muller سنة ق.م وعلى رأسهم ماكس مولر وهذا التاريخ يكاد يذهب إليه أغلب الباحثين . وان «هوبيكتز» Hopkins يرجعه إلى القرن السادس قبل الميلاد . . . وتعتمد كل فئة من الباحثين على تحديد هذا التاريخ او ذاك على أساس من الدراسات التاريخية واللغوية والابحاث المقارنة بين حضارات الشعوب الآرية في ايران وبلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى واليونان وكذلك على ما اكتشفته الحفريات من آثار^(٩) .

ورغم ان كتاب رج - فيدا ألف في هذا الزمن انسحيق فانه لم ثبتا في تدوينه الا في القرن الثالث قبل الميلاد لما بدأ اشوكا Asoka تدوين بعض التعاليم البوذية على الأعمدة الصخرية^(١٠) . . . ولم يتم تدوين رج - فيدا تدوينا كاملاً الا في اواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلاديين . . . ونظراً لمرور تلك القرون الطويلة بين التأليف والتدوين لابد ان يكون رج - فيدا قد تعرض الى كثير من التغيير والتبدل والتحوير والتحريف بالإضافة والحلف تحت رغبة التجديد والتوضيح . . ذلك لأن اشعار رج - فيدا كانت تحفظ في الصدور وتناول عن طريق

الهتهم ضد قادتهم ويسمعينون بالسحر والطلاسم والتعاون ضد تحريض المردود لسياطين على ابندتهم^(٧) هذا علاوة على ان غرواب الآرية لم تقطع وطلت تهاجم المدن والقرى وتدعى ان السكان الأصليين لا يخترمون القانون ولا يعبدون آلهتهم واتخذوا من ذلك ذريعة لطاردتهم في كل مكان حتى طمست معالم حضارات الهند الأولى ورجب بسكنها الى احضان الجبال ومتاهات الغابات . . الا ان هذا النوع القهري ترك آثاراً عميقاً في الفكر الهندى ظهر واضحاً في الاحرام والاساطير الهندية من ناحية وخلق جيلاً من سكان الجبال ومغارات الغابات اصحاب نصف العيش وايحب له فرص من التفكير والتأمل في كشف الطبيعة البكر فابتلى زهاد وحكماء هرموا كيف يقفون في وجه الفزع الآرى وهم عزل من السلاح ولا يملكون غير القوى الروحية . .

١ - الفكر الفيدي

اذا حاولنا ان نضع ايديسا على اول مرجع يعرفنا بالفكر البندي ونشأتها في الأزمنة البعيدة لانجد غير كتاب رج - فيدا ، وهو اول كتاب آرى كتب باللغة السنسكريتية ولم يعش على اية مخطوطات قديمة على اوراق الشجر او لحاء الخشب او رقاق الجلود ولا على المباني والاحجار . . اذ قد تكون الرطوبة والامطار والفيضانات اتلفتها او التهمها النمل الابيض الذي كان منتشر في الهند او تعرضت للتدمير والتخريب والضياع بسبب كثرة غروبات القباب الارية التي كانت تحطم كل ما يصادفها . .

وكتاب رج - فيدا الفه جماعة من رجال

-
- | | | |
|---|--|------|
| Macdonell A. A. : Maedonell A. A. : Maedonell A. A. : | Vedic Mythology, Grudriss, Strassburg 1897. | (٧) |
| Thomas Edward J. : Thomas Edward J. : | Vedic Hymns : John Murray, London 1923. | (٨) |
| Criswold H. D. : Criswold H. D. : | The Religion of Rigveda, Oxford 1923. | (٩) |
| Havell E. B. : Havell E. B. : | The History of Aryan Rule in India, George-Harrap London, No date. | (١٠) |

والتوسيعات في كتب منفصلة الحقت به في
ازمنة متباينة وهذه الكتب هي :

أ - كتاب ساما - فيدا Sama-Veda ..
معنى « أنشيد الفيدا » .. مكون من أناشيد
شعرية يتترن بها رجال الدين في مدح الآلهة ،
اقتبس من رج - فيدا بعد أن أعيدت
صياغتها الشعرية (١) .

ب - كتاب « ياجوش فيدا » Yajush-veda
معنى « قرابين الفيدا » .. مكون من نثر
وشعر يتلى بصوت منخفض عند أداء مراسيم
الاضحيات أو شعائر تقريب القرابين .

ج - كتاب « آثارفا - فيدا » Atharva-veda
معنى « سحر الفيدا » مكون من أدعية
سحرية تدفع المرض وسوء الحظ وتجلب
الصحة وطول العمر والحظ السعيد (٢) .

ولكل كتاب من هذه الكتب فئة خاصة من
رجال الدين تتولى ترتيله خلال الطقوس
الدينية وتلقينه للغير : فهناك فئة المشدبين
الذى تتترن بساما فيدا ، وفئة المتشعبين للنار
التي تشعل النيران في الواقع وتتلوا ياجوش
فيدا اثناء القاء القرابين في النار ... وفئة
السحرة التي ترثى آثارفا - فيدا ، وهناك فئة
آخر ترشد عامة الناس الى كيفية اداء مختلف
الشعائر الفيدية في المنازل .

اما عن الاسس الفكرية التي وردت في هذه
الكتب الفيدية الاربعة فهي في الأغلب لا تعبر
 الا عن فكرة الفراة الاريين ومن تقافتهم
وعقائدهم واساليب حياتهم وما قد اعتبرها
من تغير وتطور وهي تتكيف بالبيئة الجديدة في

الشفاه وتنتقل بالرواية وتدرس بالتلقي
لانتشار الامية وعدم معرفة الكتابة (٣) مما
أتاح الفرصة لامام رجال الدين لاحتكار حفظها
او تداولها ، فكانوا يحرسون على سريتها
وينفردون بتلاوتها وتعليمها للغير حتى يزيدوا
من هيبتهم الاجتماعية ونفوذهم الديني ولتدرب
عليهم مكاسب مادية ومعيشية .. هذا علاوة
على ان ذلك كان يعطفهم مطلق التصرفي التعديل
في رج - فيدا حسب التطورات السياسية
والاجتماعية والثقافية ، فإذا بهم لسبب او لآخر
يوضخون ما يغضض ويغدوون ما واضح ، يحلرون
ما يتعارض مع الاتجاهات السائدة ويضيفون
ما يوطد نفوذهم وينتمي مع التطورات الجارية
(٤) ولذلك يلاحظ ان الاجزاء الاولى من كتاب
رج - فيدا تفتقر على تعاليم الاريين الفراة تم
اضيقت اليها تعاليم السكان الاصليين في اجراء
تالية ، بينما وضعت بعض اشارات تفيد بان
احوال الكتب البرهانية والكتب اليوبانيسارية
موجودة في الاجزاء الاخيرة من رج - فيدا ، ومع
كل ذلك فان كتاب رج - فيدا ليس الا مجرد
مجموعات منكرة من الاشعار المشابهة في
الأفكار والمعاني ولا تختلف الا في الصياغة
الشعرية حتى انه برج انها استمدت من
بعضها بعضا على اساس من الاقتباس مثلها في
ذلك مثل بناء اي معبد جديد من حطام معبد
قديم (٥) .. وهي تضم تراتيل تنشد في مدح
الآلهة لكسب عونهم او تتلى اثناء مراسيم
تقريب القرابين .. كما تضم الادعية السحرية
التي تدفع الاذى وتجلب النفع .

ولم يكتف رجال الدين بكتاب رج - فيدا
وما احدثوه فيه من تعديلات وما زادوه عليه
من اضافات وإنما تناولوه كذلك بالتعلقات

| | | | |
|----------------|---|---|-----|
| Piggot, S. | : | Prehistoric India, op. cit. | (١) |
| Hopkins, E. W. | : | The Vedic Religion of India, New York 1918 | (٢) |
| Bloomfield, M. | : | Rigveda Repetitions, Harvard Oriental Series 1916. | (٣) |
| Oldenberg, M. | : | The Religion of the Vedas, Berlin 1882. | (٤) |
| Bloomfield, M. | : | The Hymns of the Atharva-Veda, Sacred Books of the East, Oxford 1897. | (٥) |

آلهة يرمز لها بالنار والشمس والقمر والفجر
والمطر أما بباعث الرهبة من أيديه القوى الخفية
التي ترمز لها وأما بأمل الرغبة في كسب رعايتها
وعونها (١٧) .

وإذا كانت عبادة الأسلاف نقام في المنازل
فإن عبادة الآلهة كانت يقام في الحلاء ، لأن
المعابد لم تكن معروفة للأربين الرعاة الذين
اعتادوا الأقامة في الخيام (١٨) .

وأشهر الله في مجموعة آلهة درج – فيما
هو الإله « إنдра » Indra وإن لم يكن أعظمها
إلا أنه يمثل روح الآرين المنتصرين .. ولذلك
رضعه الأساطير الفيدية في المرتبة الأولى بين
بقية الآلهة .. انه من نسل سلالة الابطال
المقاومين الاشداء في القتال .. اندخ زوجة
على قسط كبير من الجمال .. هو أشقر منظره
حلايب .. وله أذرع طويلة للغاية .. يبدو في
أي صوره يتضاء .. يركب عربة حربية ذهبية
اللون يجرها زوج من الخيول الشقر .. يمسك
في يده البمني مختلف الأسلحة من الأسهم
والحراب والخطاطيف والشباك ، ولكن أقوى
أسلحته البلطة الصاعقة .. وعبيده الآريون
على أنه الإله البطل الاشقر الذي يحارب
الاشداء في الأرض والشياطين في الجو ويرافقه
في القتال زميله قشنو وفرق من المقاتلين ..
فمحارب سكان الهند الأصليين ودممر مدنهم
وحطم قلاعهم الحجرية الحصينة وأمعن فيهم
تقتيلاً وطرد من بقى منهم من ديارهم ودفعهم
إلى الجحوة إلى الغابات والصحاري والجبال ..
كما قاتل شياطين الجو الذين يسببون البرد
والجفاف وما يؤذيان إليه من قحط ومجاعة وبروس
ومرض ، ولذلك فهم لا يكتفون بعبادة « إنдра »
في المنزل وإنما يعبدونه كذلك في الحلاء ..

الهند وتتلاءم مع نقاوة السكان الأصليين .
والأفكار الدينية التي تضمها الكتب الفيدية
الأولى تمثل طفوله الفكر وتعبر عن عبادات
بدائية ساذجة لاعمق فيها ولا اصلة وأبعد ما
تكون عن العادات الروحية .. نسأت آلهتها
على أساس اجتماعي او أساس سياسي ..
وباعت على تفاصيلها دنيوي مردها إلى الخوف
من الأذى او الرغبة في النفع دون الانتباه لقيم
الروحية التي تهتم بما بعد الحياة الأرضية

ويمكن أن يستخلص من الكتب الفيدية
الأولى نوعان من العادات :

١) عبادة الأسلاف : (١٩) وهي عبادة تفرض
على الأبناء تقدير الآباء والأجداد بعد الموت
الذي يضفي عليهم صبغة مقدسة مباركة
تحولهم إلى نوع من القوى الخفية التي ترعى
شئون الأحياء وتجلب النفع للأهل وتدفع
عنهم السوء .. فعلى الأبناء البار ان يتهمل
إلى هؤلاء الأسلاف في أوقات القحط والمجاعات
والحروب وفي مواسم الزراعة والحصاد ..
وان يقدم لهم الأضحيات والقرابين حتى
يحافظ العبد على كيان الأسرة وصالح المجتمع
وحيث ان للأبن وحده دون غيره حق أداء هذه
الشعائر فقد أصبح له مركز خاص في الأسرة
يمكنه من ان يصبح رئيسها القادر بفضل
قوى الأسلاف وان يرعى شئون المجتمع التي
تحقق مصلحة الجماعة وتماسكها ..

٢) عبادة مجموعة من الآلهة تمثل في الفالب
قوى الطبيعة على أنها مظاهر قوى خفية ..
ويبلغ عدد الآلهة الفيدية حوالي ثلاثة وثلاثين
الها والاهة يتوزعون بالتساوي على اقسام
الكون الثلاثة وهي السماء العليا والجو
الوسط والارض السفلية .. فعبد الآريون

(١٦) د. احمد ابو زيد « البناء الاجتماعي : الجزء الثاني : (الاتساق) » دار الكتاب العربي الاسكتلندية ١٩٦٧ .

Masson-Oursel, P. and

Others.

: Ancient India and Indian Civilization, Kegan Paul,
London 1934

Griswold, H. D.

: op. cit.

(١٧)

(١٨)

تفجر له تدميره للمدن وتخريبه للبيوت ودكه للحصون أو تقليله للسكان الأصليين في البنجاب والسندي وتشريده لهم في الغابات والصحاري والجبال واستباحة أموالهم وأعراضهم ولم تغفر للأربين السقر استعانتهم بالقوى الخفية لسلفهم الأكبر انдра وكيف استعدوه ضد جنسهم الذي نظروا إليه نظرة تعال لا تخلو من حقد ، جردوهم من انسانيتهم لمجرد انهم سمر البشرة ويقيمون في مدن وبيوت ويمكون الأرضي وقطعن المسابة .. فإذا بالأساطير الشعبية تنزل «اندرا» من عليائه وتجعله مجرد الله تابع من الدرجة الثانية أو أقل من ذلك بكثير لأنه يرتكب من الخطايا والألام ما يستحق عليه العقاب ، فتنتهي هذه الأساطير انдра بقتل ناسك تهيا له أنه عدو من الشياطين فنعته والرمته بالاختفاء واعتزال الناس وتقديره القرايين حتى يكفر عن هذا الانم .. بينما تروى القرايين الشعبية «المهاباراتا» Mahabharata ملحمة آهاليها Ahalya زوجة الراهد «جوتاما» Gotama بالفس والخداع فاستحق غضبه ولعنته التي طبعت عليه الف علامة ترمز لعضو الانثى تشميرًا بسلوكه المتسين .. فأخذ انдра يعادى الراهد والنساك ويرسل لهم الغائيات ليغتنيهم بالفواية ويضر فهم عن معاداته والبحث عن المكان الذي يختفي فيه حتى لا يعثروا عليه وينزلوا العقاب به .. ولكن ملحمة «الرامايانا» Ramayana الشعبية أو قعنته في اسر «رافانا» Ravana الله الشر الأكبر كمقاب له على غوايته لآهاليها ودفع العذارى للفسق بينما ادخلته الأساطير المأخره Krishna في صراع مع الله «كريشنا» Krishi the الاسمر الذي استجاب له الرعاة بالإمتناع عن عبادة انдра الذي افتواه وأنزل جام غضبه عليهم بأن أرسل سيلًا من الامطار فسارع كريشنا برفع الجبال لتحمي الرعاة من هذه السيول الجارفة لمدة سبعة أيام متتالية مما

ما شعلت له موقد النار التي يرمز إلى الإله «آجني» Agni لتلقى فيها القرابين وبخاصة شراب السوما الذي يستخلص من نبات جبلي أصفر اللون .. بمصر .. ويصفى .. ويخلط بالحليب والبن والحبوب .. وهو شراب لا يتبع منه «اندرا» أبداً ويعب منه كميات هائلة عن طريق فم «آجني» حتى يحافظ على قواه التي تعينه على قتال الأعداء في الأرض والسياطين في الجو (١٩) كما تشد له الترايم التي تنتهي على بطولاته القتالية وقدراته في قهر العدو واستسقاط المطر وزراعة المحاصيل (٢٠) . بل إن كتب الفيدا تخصص له عدداً من الترايم والتراينيل يغوص عدد جمع الترايم والتراينيل المخصصة للإلهة الأخرى .. مما يدل على ما كان عليه مركز «اندرا» من امتياز عند الغرفة الآرية الأوائل.

فالله «اندرا» هو الله بطل يحرز النصر لقبائل الآرية ويحميها من الأعداء ولذلك يمكن أن يعد هو وزميله قشنو ورفاقه من المقاتلين بمثابة أجداد مختلف القبائل والمستائر الآرية ، وإن عبادته يمكن أن تعبّر عن نوع من عبادة الأسلام .. وإن اعتباره رمزاً للقوى التي تقضي البرد وتجلب الحرارة التي تدب الثلوج وتستقطن المطر الذي يساعد على الزراعة وتربيه الأغنام والمواشي على المراعي يدفع إلى القول بأن عبادته تعد بمثابة عبادة قوة من قوى الطبيعة يتقارب إليها الآرى بداعي الرغبة في تحقيق نفع أو الرهبة من حدوث أضرار من البرد والجفاف تسبب في المجاعة والبؤس والفقر .. أو الحرص على حفظ مماسك كيان المجتمع الآرى بالتشاور الرخاء وتجنب العوز وال الحاجة ..

الآن انдра لم يظل هذا الإله الأصغر المعظم إلى أبد الأبدين بل ان الأساطير المتأخرة لم

حلكة الليل .. ومن ضوء يبعد الحوش عن
الخيام ويحرس الناس وهو نير .. ومن لهب
يستخدم في طهو الطعام .. فكان للنار منزلة
عائلية محبوبة تنفع الجميع . ولقد عيدت النار
كذلك لأن حرارة الأشعة الصادرة عن الشمس
تساعد على نمو النبات والحيوان وتزيد من
المحاصيل والماشية والأغنام ، واهضم الأردى
بأشعال موائد النار داخل المساكن وخارجها
للتغلب على ظلام الليل الذي تجوس فيه القوى
الشريرة وتندس في سواده الشياطين الساحرة
المؤذية والضارة .. ولذلك كان الاهتمام شديداً
باستمرار اشتعال النيران ليلاً نهاراً في المساكن
ومحال العمل وأماكن العبادة في الخلاء حتى
افتبرت بمثابة فرد من أفراد الأسرة أو القبيلة
أو عضو من بين هيئة رجال الدين الذين يلزمهم
الواجب العائلي بصيانتها عن طريق تقديم
مختلف القرابين اليومية حتى تظل على الدوام
متسللة كدليل على وفاء الانباء للأجداد
وتسمى بهم بعقائد القبيلة وایمانهم بقدرة هذه
العقائد على حماية الأسرة ورفاهية القبيلة ..
أما عن استمرار اشتعال موائد النار في المدينة
في الخلاء فهو أمر من واجبات فئة
من رجال الدين (٢٢) الذين يدربون على الإشراف
على عمليات تقديم القرابين للنار ويتوانون الادعية
السحرية بصوت منخفض حتى تكون مباركة
مقبولة وتسنطيم أن تبعد الموى الشريرة
وتفسد اثر السحر الضار وتتغلب على الشياطين
وبعد المرض .. وت تكون القرابين عادة من
حليب أو لبن أو زبد سائل أو حبوب او لحوم
لائمها النيران بتبره زائد وتحدت اصواتها
تندادي «آجني» الذي يلعن القرابين بالسته
العديدة ويخص نفسه بما قدم منها من اجله
ويوصل لبقية الآلهة ما ألقى في النيران من
أجلهم حتى يقوى هو وبقية الآلهة على دفع
الأذى الذي قد ينزل بالناس وبجلب النفع
الذي يرغبون فيه ..

اضطر اندرَا الاشقر في النهاية الى الاستسلام والخضوع لكريسا الاسمر (٢١) .

☆ ☆ ☆

احب ان هذه الاساطير التعبية يصور
اندرا في صورة مختلف تماما عن الصورة التي
تعطيها الكتب الفيدية الاولى خصوصا رج -
فيما التي تخصص له اكتر من مائتين وخمسين
تراثية تشهد بان الصراع بين الآرين وسكان
الهند الأصليين استمر اجيالا طويلا ولم يقف
عند انتصار الغزاة الآريين .. فاندرا الذي
ثني رج - فيما على قتله لسكان الهند
السمر ومطاردتهم في الغابات والآثار ،
والاسنيلاء على ممتلكاتهم واستباحة أغراضهم
تحاسبه الأساطير والملامح التعبية .. وبعد
ان كان رمزا للبطولة أصبح رمزا للاغتصاب
والدعارة .. وبعد ان كان اعظم الآلهة واقواها
اصبح الموبية .. يخاف من الزهد والنساك
.. يقع في اسر الشيطان رافانا .. يستسلم
لسيطرة الآلهة كوشينا ..

فإذا كان اندرَا هو الاله البطل الذى يمثل رجال الحرب فان الاله آجنى Agni هو المبود الذى يشرف على خدمته رجال الدين .. ان روج - فيدا تخص آجنى بمائتين من التراتيم تستهل بها معظم أجزائها .. ان آجنى على رأس نالوث مقدس مكون من آجنى Agni .. فايا Vaya .. سوريا Surya .. وهم جميعاً منساوون في الالوهية ويمثلون على التوالى : الأرض .. الجو .. السماء .. ويرمز لهم بالقوى المشتعلة المضيئة : النار .. البرق .. الشمس .. ويصور آجنى بنلانة برؤوس، وثلاثة السنة(٢٢).

وترجع عبادة آجني الى أن النار في الأصل كانت تبعد لذاها بسبب ما تجلبه من دفعه في الشتاء القارص، السرد .. ومن نور يذهب

- | | | | |
|--------------|---|--|------|
| Dowson, J. | : | Hindu Classical Dictionary, Kegan Paul, London 1928. | (11) |
| Keith A. B. | : | Indian Mythology, Boston 1917. | (11) |
| Keith, A. B. | : | The Religion and Philosophy of the Veda and Upanisads. | (11) |

بكثير من حروب العسكريين الدين يدمرون
ويخربون ويقتلون ويشردون ويطاردون ..

وإذا كانت عبادة الآلهة اندرأ وآجني وبريها
سبانى وما دار حولهم من أساطير يتم عن
فكرا ساذج طفولي يعد من أقرب العقائد إلى
البدائية التي تخلو من فكرة الشواب والعقاب ..
فإن عبادة الآلهة « فارونا » Varuna تعرف
بضرورة تجنب الخطيئة وطلب المغفرة عند
ارتكابها خوفا من العقاب .. إن فارونا وزميله
« ميترا » Mitra على رأس مجموعة من
الآلهة ترمز إلى الكواكب المضيئة من الشمس
والقمر والنجوم .. يعقوب فارونا كل من
يرتكب خطيئة كالقتل والسب والفسق ولعب
القمار وسرقة الخمر لأن بصيبه بالمرض أو
يودي بحياته ويحرمه بعد الموت من مصاحبه
في الحياة الأخرى .. إلا أن فارونا غفور رحيم
فمن يتوب ويطلب منه العفو ويقدم له القرابين
فإنه يغفر له وإذا استمر في عبادته يضمن له
الحماية والسعادة في الحياة الدنيا ويشهد له
بعد الممات ويضممه إلى صحبته في الحياة
الآخرى (٢٥) .

ومن بين الآلهة الثلاثة والثلاثين الآلهة « ياما »
Yama الله الموتى واختاه يامي Yami ويامونا
Yamona .. يصعد إليه الموتى بعد أن تحرق
 أجسادهم بنار آجني ثم تتحدى باجسام مضيئة
 أخرى تتکيف بالوسط المساوى بعد أن تتخلى
 عن مفاسد الأرض وتعيش في صحبة ياما
 والأباء والأجداد والآلهة .. ومن بين الآلهة
 كذلك الآلهة يوساس Usas التي تعتبر سيدة
 الفجر وتتميز بسحر أنواع أخذ خلاب وتدع
 من أرشق المعبودات التي يتربّن بها الشعور
 الهندي ، فهي تبتسم .. وترقص وتغنى ..
 وتستعرض مقاييس أنوثتها .. وهي تبدد رداء
 الليل الأسود .. تزيل الألام العابسة الكثيبة
 .. تبعد الشياطين الشريرة قبل أن تفتح

فلم يعبد الآرى النار إلا على أنها رمز
« آجني » وحرص على اشتغالها حتى يزود
 آجني وبقية الآلهة بما تحتاج إليه من قوى
 لتعمل على خدمته فأصبح « آجني » في مقدمه
 الآلهة الآرية وعلى رأسها جميرا بعد أن استقر
 الأمر في الهند للآرين ولم تعد هناك حروب
 طاحنة بين الفرازة والسكان الأصليين فضوى
 نفوذ رجال الدين واعطوا أهمية كبيرة لطقوس
 « آجني » القرابينية واحتلوها بالفموض
 والتعقيد واحتكروا أدائها وجعلوا من آجني
 شاهدا على أفعال الناس جميعا لأنه هو
 الذي يوصل القرابين إلى جميع الآلهة ..
 فاعطى تعظيم « آجني » لرجال الدين هيبة
 واحتراما بين الجميع فتنافسوا على خدمته
 وتكونت منهم فئات ، كل منها تقوم بدور معين
 من عمليات طقوس الشعائر نار الواقع وشعائر
 تقديم القرابين ..

ولقد أخذ نفوذ رجال الدين يشتد شيئا
 فشيئا حتى استطاعوا أن يتوجوا الله بريها
 سبانى Brihaspati — الله رجال الدين
 الأول — و يجعلوه يمتلك صفات اندرأ وآجني
 معا علاوة على صفاته الخاصة .. فهو الله
 يجمع بين صفات اندرأ القاتلة وصفات آجني
 المبددة للظلم وصفاته الخاصة بأنه سيد
 الصلين ورب ثلاثة الأدعية الذي سقى أداء
 شعائر القرابين ويعليمها لرجال الدين وهو
 الذي يقسمهم إلى فئات يحدد لكل منها دورا
 خاصا في المراسيم الدينية وبخاصة في الطقوس
 القرابينية .. فتقديم « بريها سبانى » صحف
 الآلهة وأصبح على رأس تالوت معدس مكون
 من : بريها سبانى .. آجني .. اندرأ (٢٤)
 وهذا لا يخلو من دلالة سياسية على أن نفوذ
 الكشاتريا بدا يضعف أمام نفوذ رجال الدين
 من البراهمة ، وأن جموع الشعب استكان
 لسيادتهم رغم ترميمهم الشعائري .. لأن أهون

الثروة الحيوانية .. الا انهم جمعوا لهم قدرات الاهية خارقة ، يعروفون كل شيء ويجب ان يقدسوا وتقدس لهم القرابين .. ولذلك رأى Dayanaoda Sarasvati مؤسس جماعة آريا سماج Arya Samaj في القرن التاسع عشر الميلادي كل هذه الاهية مجرد أسماء مختلفة لاله واحد .. الا أن الوعي الديني بين الغرابة الآربين في عصر رج - فيما لم يخطر له مثل هذا النوع من التوحيد خصوصا - وأنه كان هناك ازدواج الهي بين كل زميين من الاهية او بين ذكر والثي - كما كان هناك أكثر من ثالوث الهي كالثالث انдра وبالوث آجني ، بينما كان يرتبط بفارونا مجموعتهن الاهية الكوكبية (٢٧) وكل هذه الاهية لم نهتم الا بالأرض والنافع الأرضية وان تلاوة العبادات وتقريب القرابين لم يهدف الا لطلب طول العمر وأبعاد المرض والطعم في التراء من زيادة المحاصيل الزراعية وقطعان الحيوان رغبة في حياة أفضل على الأرض ، وان أشد عقوبة لغارونا لا تخرج عن اصابة الخطئ بمرض او حرمانه من الحياة الأرضية - بل ان بعض الباحثين يشكون في ان فارونا الـ آري وينسبونه الى الاهية السامية التي تأثرت بها ديانة الغرابة الآربين قبل مجدهم الى الهند عن طريق اتصالهم بالفرس وديانتهم التي تأثرت بديانات بابل (٢٨) .

وقد يظن انه يمكن اتخاذ كتب الفيدا الأولى من رج - فيما وساما - فيما وياجوش - فيما وآمارفا - فيما اساسا رئيسيا لاستخلاص مبادئ الديانات الهندية .. الا انه يلاحظ ان هذه الكتب لا يهتم الا بالحياة الأرضية من دون الحياة بعد الموت وان رجال الدين كذلك بمارسون أعمالا اقتصادية بما يحصلون عليه

ابواب السماء وتنير السماء للكون .. ويوجد أيضا بين الالهة الله خاص لكل اصحاب حرف : وبالله النلالية بيهوس Ribhus آلهة الصناع وهم في الأصل ثلاثة اخوة من امهير الصناع الذين صنعوا وصنعوا عربة « اندرَا » الحربية .. وبهذا العمل العظيم اكتسبوا قدسيّة منحthem قوى خارقة فاستحقوا الثناء والعبادة من الناس والحياة في السماء .. والاله « تواشترى » Twashtri كذلك صانع اسلحة اندرَا من السهام والرماح والصواعق الحديدية عبد من اجل مهاراته في صناعة الاسلحة .. ولا شك في ان عبادة مثل هذه الالله لا تخلي من تمجد لأصحاب المهن الحربية اما « يرفارا » Urvara سيدة الحقل والاهة الخصب .. « وسيتا » Sita سيدة الحمر والحصاد .. « وبوسان » Pisan الاله الخاص لقطعان الماشية والأغنام .. فتعبد جمها و يقدم لها القرابين من اجل ما تقدمه للناس من ثروات ومنافع .. (٢٩) .

ان اغلب الاله رج - فيما تكاد تشتراك في صفات واحدة .. ونحارب جميعا عدوا واحدا هو الشيطان « فريترا » Vritra واهوانه الذين يسببون الجفاف والبرد ويمعنون سقوط المطر ويقضون على الزرع والضرع والنبات والحيوان ، وكذلك تحارب اعداء القبائل الارية .. وان كان لكل الله صفة غالبة حيث ان اندرَا يمتاز بالقسوة العسكرية وآجني بمعرفة اداء الشعائر القرابينية وفارونا بعقاب المذنب وياتا بمحاسبة الموتى وبوسان بالسحر الانثوي ، وريبهوس وتواشترى بالمهارة في صناعة المعدات الحربية ويور نارا وسيتا بالمحافظة على الثروة الزراعية وبوسان بالمحافظة على

Griswold, H. D : The Religion of the Rigveda op cit. (٢٦)

Das Gupta S. N. : Philosophy, (Legacy of India), Oxford 1951. (٢٧)

Tarapada Chowdhury : The Vedas. (History of Philosophy: Eastern & Western) Allen-Unwin, London 1952. (٢٨)

طبقة المقاتلين فوق الطبقات ولكن سرعان ما فوي نفوذ رجال الدين وتنافس البراهمة والكتساريها على السلطة تم اصيحت طبقة البراهمة في قمة الطبقات .. الا ان البراهمة الذين احترفوا صناعة القرابين وعاشا مع أسرهم في مساكن المدينة وجمعوا الشرفات بما يقدم لهم من هبات وما ياخذونه من رسوم، لم يحاولوا السيطرة على الحكم ورجال الكتساريا فقط وإنما حاولوا ايضا ان يخطفوا ما اكتسبه الرهاد والنمساك من حسن سمعة في الأوسط الشعبيه .. فإذا هناك اضافات عابرة الى القسم الاخير من برج - فيبدا تسير الى أهمية الرهاد بالنسبة للبراهمة الا انهم لم يستطيعوا التخلص من حياتهم الاجتماعية ومشاغلهم الدينية ولم يستطيعوا كذلك ان يسحبوا تقة الطبقات الشعبية في الرهاد والنمساك .. هؤلاء الرهاد والنمساك الذين كثروا الحديث عنهم في الأساطير واللاحام وكيف انهم يعيشون في عزلة تامة في كهوف ومقارات لا يمارسون غير المواجهات والرياضات ولا يأكلون الا ما يوجد به عامة الناس عليهم ولا يجمعون المال والضياع والقطعنان .. فإذا « بالمهاباراتا » Mahabharata تشير بذلك المحكيم الرهاد « فيديورا » Vidura رفع انه من ام من طبقة السودرا ولمجده الأساطير بالراهد « فاسيشتا » Vasishtha وفم ان امه كانت عاهرة وكذلك بالراهد « فياسا » Vyasa مع ان امه كانت تصيد السمك وبالناسك « باراسارا » Paracara وهو من اصل سودري .. وإن ما اكتسبه هؤلاء الرهاد من رفعة وسمو ونفوذ روحي لا يرجع الى نسبهم وحسبهم او اصولهم وجنسيهم ، إنما يرجع الى زهدهم وتقشفهم وحكمتهم فقط .. ولقد رأى فيهم البراهمة منافسين خطرين فلم يذكروهم في كتبهم واطمأنوا الى انهم لا يعيشون

من هدايا ورسوم نظير أداء السعائر (٢٩) ولا تكاد تامج في النظريات الهندوسية الأصلية التي تكاد تكون من اهم السمات البارزة في الفكر الهندي ، بل نظريات الكارما والتناسخ .. آية اسارة الى اي نوع من الشائوم او تنبئها الى ضرورة المرلة والتنسك والرهاد والمجاهدة كوسيلة للطهارة التي تمهد لتحقيق كمال الذات او بلوغ اي ضرب من الوحدة بين الله والانسان والطبيعة .. بل ان الكتب الفيدية الأولى لم تعرف الروح الا على أنها مجرد نفس اذا انقطع ذهب الحياة ولا امل لاحد في الحياة الأخرى الا اذا صاحب الآلهة ولا يتم ذلك بعد محاكمة على الآنام والخطايا وإنما يتحقق بدوام تقديم القرابين .. الا ان هناك اتسارات خاطفة وتلميحات باهتة في الجزء العاشر والأخير من برج - فيبدا عن ان النظام الطائري يستند الى أساس من الولادة لا من الجنس وان الرهاد والقرابين معا تقرب الانسان من الآلهة .. اذا تشير برج - فيبدا الى ان الانسان الأول بوروشا Punusha اخرج من رأسه اول برهمي ومن ذراعيه اول كتساري ومن ساقبه اول فيسي ومن قد미ه اول سودري (٣٠) وعلى هذا الأساس قسمت اعمال الطوائف الهندية الا انها ادخلت ، ايضا اللون والجنس في هذا التقسيم فإذا برج - فبدأ سخذ من سمرة طبقة السودرا مدعاة لأن يجعلها في ادنى الطبقات .. بينما في الأساطير الشعبية وخاصة في المهامارانا اسارة الى ان البراهمة شقر والكتساري حمر والفيسي صفر والسودرا سمر (٣١) مما يدل على ان هذا التقسيم ما وجد الا لأن هناك اجناسا بشرية مختلفة قد وفدت على الهند من مختلف الجهات التي تحيطها واستقرت فيها وحاول كل جنس منها محافظة على كيانه تكوين طبقة خاصة به .. ولقد استقل الفرقة الآريون هذا التقسيم وتعالوا على بقية الطبقات وجعلوا

Oldenberg, H. : op. cit.

(٢٩)

Sen, S. M. : Hinduism, Pengum, London 1961.

(٣٠)

Hutton J. H. : op. cit.

(٣١)

.. وتضم كذلك تعلیمات بخصوص تقسیم رجال الدين الى فئات يحدد لكل منها نوع معین من الطقوس ، فعنهم المشدلون لترانيم رج - فيدا ، ومنهم الشعلون لمواقد نار آجني ومنهم المقربون للقرابين ومنهم المتخصصون في الشعائر الجنائزية وغير ذلك من الفئات التي تشرف على أنواع أخرى من المراسيم الدينية عند الولادة والزواج . (٢٢)

ولقد ظهرت كتب البرهمانا فيما بين الفرعين الثامن والخامس قبل الميلاد بعد أن توالت تغيرات أخرى من الآرين الذين امتد نفوذهم إلى حوض نهر الجanges ، وكان الكثيرون يجهلون التعاليم الفيدية أو أصبحت الكتب الفيدية الأولى لأنائم تطورات العصر في وقت بدا يشتد فيه نفوذ رجال الدين ويلعبون دوراً هاماً في توطيد النظام والسيادة على الجماهير عن طريق دعوتهم إلى حسن أداء الشعائر الفيدية والاهتمام بتقديم القرابين حرصاً على تجنب أذى القوى الخفية التي تصيبهم بالمرض وتنزل بهم الموت ، وتحدث الجفاف وتميت الزرع والضرع وتنشر المجاعات والآوبئة كما تلفي بهم في غياب العالم السفلي المظلم بعد الموت وتحرمهم من الصحة وطول العمر والعودة إلى الحياة بعد الموت أو من البقاء في حلبة الآلهة . (٢٣)

وأضافت كتب البرهمانا لها جديداً إلى آلهة رج - فيدا الثلاثة والثلاثين هو الإله براجا - باتي Praja-Pati فأصبح الإله الرابع والثلاثين الفيدى الذي يتضمن بصفات تكاد تجمع بين مختلف صفات الآلهة خصوصاً صفات الإله « انдра » الإله الحرب والإله « آجني » الإله القرابين .. والإله براجا - باتي هو الإله الخالق الذي خرج منه العالم عن طريق الشعائر والقرابين كذلك من طريق

في المدن وأن سلطانهم لا يتعذر القابات ولا يقوى على الصمود أمامهم فازدادوا تمسكاً بالشعائر الدينية وبحرفة الطقوس القراءنية خافلين عن قدر هؤلاء الزهاد الذين ظهروا من بين سكان الهند الأصليين الذين طردتهم الفوارى الآري إلى الجبال والغابات .. إذ انهم استطاعوا بفضل أساليبهم الروحية ان يجدوا الكربين الى صوامعهم والتفحولهم المريدين يستمعون الى تعاليمهم ويستخدمون قدوة يقتدون بها واعتبروهم بمثابة المرشددين والوجهين .. الا انه لم يكن لهم اي خطير سياسي او اقتصادي لأنهم لم يكن لهم مارب في السادة والحكم والثروة وفضلوا الرهد على كل شيء .. ومع ذلك كان هذا الرهد كان من اعظم الغوى التي استطاعت ان تقهقرا الفوارى الآري ..

ولكن بينما كان الزهاد الأول يهيمون على وجهوهם في الجبال والغابات لا يهتمون بتجميع افوالهم وتنظيم تعاليمهم بل تركوها تداول كالاقوال المأورة بين الأوساط السعبية وغالباً باللغات العامية .. كان البراهمة يهيمون بتلقين كتب الفيدا الأولى من جيل لجيل وندرس ابنائهم وتلاميذهم على حسن أداء مختلف انواع الشعائر حريصين أشد الحرص على احتكار تداولها بين ابناء البراهمة .. بل ان ما وجد في هذه الكتب من غموض وابهام واتضاب حثthem على وضع مجموعة اخرى من الكتب تناولت الكتب الفيدية الاولى بالشرح والتفسير والتتعليق بغرض التوضيح وتقریب المفاهيم المتعاقبة فكانت كتب البرهمانا Brahmana التي يمكن ان تعتبر المجموعة الثانية من الكتب الفيدية . وقد وضعت أساساً لتشمل توجيهات وارشادات تكفل صحة انتاد الترانيم الفيدية سواء في النطق او النغم دون لحن او نشاز وحسن أداء المراسيم الفيدية المقيدة وتقریب القرابين المتنوعة بكل دقة دون بعثرة او تخطط

Smith, F. H. : Outlines of Hinduism, Epworth, London 1934.

(٢٢)

Macdonell A. A. : Vedic Religion (Hastings Ency. of Religion and Ethics) Vol. XII New York 1928.

(٢٣)

الفرد في يوبانيشاد لا تكاد تلمح لها أثراً في رج - فيدا أو برهمانا ، .. نظريات تجسد الإله في الإنسان أو اتحاد الإنسان بالله أو وحدة حقيقة الله والانسان والطبيعة في يوبانيشاد لا تقوى نصوص الكتب الفيدية الأولى والثانية على افرازها في آية صورة من الصور الباهتة ..

فهل ظهرت كل هذه النظريات بدون مقدمات وفجأة في كتب اليوبانيشاد دون أن تكون لها سند واضح في الكتب الفيدية التي سبقتها ؟ ان الكتب الفيدية وضعها أصلا الغرابة الآريون فهي لا تنم الا عن تفكيرهم وتعاليمهم وأسلوب حياتهم الدينية .. ولقد فرضت بقوه الغزو على جماهير الشعب الهندي دون نظر لتعاليم هذا الشعب .. واستطاع رجال الدين بما اكتسبوه من نفوذ على مر الأجيال ان يلزموا الجميع باحترام هذا الدين وتنصيبه الدين الرسمي للدولة الذي يجب ان يراوشه الجميع وتحافظ الدولة على كيانه من اى تهديد يأتي من دين آخر ، حتى ولو كان دين السكان الأصليين من الهندود ، وان من لا يُؤدي شعاره او لا يقدم القرابين لآلهته يعد مارقا يستحق الاحتقار والمهانة ولا بد ان يفرغ الكثير منهم بدينهما الى الجبال والغابات .. ولا بد ان تمجد الأساطير الشعبية هؤلاء الفارين بدينهما وتعاليم الهند الأصلية .. ولكن نعرف شيئاً عن دين السكان الأصليين ، احسب انه ليس امامنا الا تراث الأدب الشعبي للهنود الذي يترك في الأساطير والملاحم .. فالتراث الشعبي يتناول عادة باللغات العامية ولا تحول دون سعة انتشاره آية قوى غاضبة ، لأن الأدب الشعبي تملك القدرة على التشكيل والتلوّن بكل لون وكل عنصر وتعرض انتاجها بالصورة التي ترضى العامة والخاصة .. ولذلك فلكي نفهم التطور الفكري في يوبانيشاد يجب ان نلتجأ الى الأدب الشعبي

المجاهدات (٣٤) التي أشار اليها الجزء الآخر من رج - فيدا ، وتعليقات «برهمانا» عليها تكاد تكون اشارات عابرة لم يهتم رجال الدين بممارستها لأن البراهمة اقاموا في المدن وزرلوا في مساكن فاخرة وعاشوا حياة اجتماعية لا تخلو من رفاهية وترف وهي لا تناسب مع حياة المجاهدة التي تتطلب ترك المجتمعات والتزام العزلة في أمكنتهالية .. واهتمام رجال الدين الشكلي بالمجاهدات لا شك في انه يشير الى ان هناك وضعاً اجتماعياً أعطى للزهد والنساك كثيراً من الاعتبار والتقدير الا انه لم يصل الى الحد الذي يجعل تعاليهم تقف وجهاً لوجه امام التعاليم الفيدية البرهمانية ..

٢ - الفكر اليوبانيشادي

يرى الباحثون في الفكر الهندي القديم ان كتب اليوبانيشاد Upanishads هي الكتب الفيدية الثالثة .. وأنها نهاية تطور الفكر الفيدية رغم ما بين كتب اليوبانيشاد والكتب الفيدية الأخرى من اختلاف اساسي في اصول الفكر الفلسفى الدينى .. وقد حاول هؤلاء الباحثون ان يتمتسوا اسس تطور الفكر الهندي ابتداء من رج - فيدا الى يوبانيشاد دون جدوى ولم يجدوا غير اشارات سريعة غامضة عابرة يشك في أنها محرفة وموضوعة تحتاج لتأويلات مفتعلة حتى يمكن ان تعتبر اصلاً من اصول الفكر اليوبانيشادي .. ان الروح في اليوبانيشاد ليست الا مجرد نفس في رج - فيدا والبرهمانا .. وان الله المهيمن على الكون في اليوبانيشاد يصل الى ثلاثة وثلاثين في رج - فيدا وأربعة وثلاثين في برهمانا .. ان فيض الكون عن وحدة الحقيقة في اليوبانيشاد لا نجد له الا اشارات مادية عن خلق العالم او خروجه من هذا الإله او ذلك في رج - فيدا او برهمانا .. نظرية التنساخ حسب الكلارما Karma اي افعال

الأولى والثانية يشهد بان الشعب الهندي أخذ يخلص من رواسب الاستعمار الارى ويستعيد حيويته الفكرية ويفرض اتجاهاته الروحية ويغزو الفكر الارى ، ومن هنا اصبحت تعاليمه الأصلية نجد لها صدى في قلوب الجميع عن طريق الأدب الشعبي ..

والرامايانا والهباراتا هيارة عن خليط متراكم من الأقايسن والحكايات والروايات قد تكون خيالية او لها أساس من الواقع ، وقد وضعت على مسر الأجيال حسب الظروف والاحوال ، ويمكن أن تعرف فيها على متاخر وأفكار وسلوك الشعب الهندي من خلال حياة الهندود الاجتماعية والاقتصادية والحربيه والثقافية والدينية ، مع معرفة العادات والتقاليد والعقائد السائدة ، ولذلك فان « الرامايانا والهباراتا » تضمّن حشداً كبيراً من الأفكار والفلسفات والتعاليم التي تجمع بين الديانات الارية والديانات الشعبية وبين حكمة الزهاد ومادية الخارجين عن الاديان (٢٨) ويجرى فيما مختلف التيارات الفكرية والدينية التي تسربت اليهما من كل جانب فوجد الجميع فيما سندأ تاريخياً شعبياً يدعم تعاليمهم ويعطي لها صبغة القدم ..

وتعلو « الرامايانا » مسحة خلقية رفيعة اذ يقبل راما تنفيذ وعد أبيه المجوز لزوجته بان يستجيب لاي طلبين تختارهما فاختارت Bharata تنصيب ابنتها « بهاراتا » Rama حاكماً ثم نفى « راما » خارج البلاد في الغابات والجبال لمدة اربعة عشر عاماً (٣٩) في يوم توليه الحكم ، فانصاع

ما دامت الكتب الفيدية لم تسعنا في هذا المجال .. وقبل أن نتعرض للفكر اليوبانيشادي يجب أن نتلمس أصوله في الملحمتين الكبيرتين للهندي وهما « الرامايانا والهباراتا » رغم ما يقال من أنهما قد وجدا في عصر متأخر عن مصر يوبانيشاد ..

ان ملحمتي « الرامايانا والهباراتا » نuhan من أقدم الملحم الشعبية المعروفة وان كان هناك اختلاف حول بدء تكوينهما ولكن يكاد يكون هناك اتفاق على انهما قد جمعتا فيما بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد (٤٥) أى تقريباً في نطاق نفس الفترة التي جمعت فيها برهمانا ويوبانيشاد ، وان اعتبرت رج - فيدا أقدم الجميع لأنها لا تخلو من اشارات قليلة الى الآداب السبعية التي وجدت قبل العصر الفيدي الارى ، الا أنها لم تعط لها من الأهمية ما اعطته للديانات الارية .. وهذه الاشارات القليلة تتم عن انه كان هناك آداب شعبية أقدم من رج - فيدا (٤٦) انتشرت أول الامر بين الاريين لأنها كانت تداول بلغات شعبية ولهجات عامية (٤٧) ولأنها أول ما عرفت باللغة السنسكريتية جمعت في صورة تناسب عصر القرون التي بين الثامن والخامس قبل الميلاد .. فكانت حداتها وتعابيرها الفوية تتنمسي مع أحداث هذا العصر وأساليب حياة أهلها ولقتهم مع احتفاظها بأصل الفكر الهندي الذي تقلب عليه النزعات الروحية ، وهذا يقودنا الى الاعتقاد بان الرامايانا والهباراتا اقيمتا على آداب شعبية هندية أصلية أقدم منها بل أقدم من كل الكتب الفيدية .. كما أن ظهورهما بما تحويانه من دعائم روحية لا نكاد نعثر لها على اثر في مجموعات المؤلفات الفيدية

| | | | |
|------------------------------|---|--------------------------------------|------|
| Jacobi, H. | : | Das Ra rayana, Bonn 1893. | (٤٥) |
| Sen, S. M. | : | op. cit. | (٤٦) |
| Barth, A. | : | The Religion of India. Boston 1882. | (٤٧) |
| Masson-Oursel, P. and Others | : | op. cit. | (٤٨) |
| Shudha Mazumdar | : | Ramayana Bhavan's Book, Bombay 1953. | (٤٩) |

رفض الكوروس عودتهم فقادت الحرب بينهم التي لم تبق الا على الاخوة باندوس الخمسة وكريشنا ومات جميع الاخوة كوروس وتولى زعيم باندوس آرجونا ، الحكم وأحفاده من بعده ..

يلاحظ في هاتين المحمتين اشارات عميقة لم تمح من الوعي الهندي ، عن النفي والطرد من البلاد الى الغابات والجبال .. وكيف ان الذى ينفي عادة هم الابطال السمر .. وكيف انهم يجاهدون في سبيل العودة .. وكيف انهم ينتصرون في النهاية بالحكمة .. وهي اشارات تدل على ما للغزو الارى ومطاردته للسكان الاصليين في الهند من اثر غائر في الفكر الهندي ترك ملامحه على الاداب الشعبية وعلى ان حكمة سكان الغابة هي التي تنتصر دالما على قوة سكان المدن .. وكيف اصبح راما وكريشنا الاسمران تجسيدين للاله فشنو Vishnu ... وكيف حولت حياة الغابة الاخوة باندوس الذين هرموا بالشجاعة والمهارة العسكرية الى حكماء يفضلون الحياة الروحية .. وان الشيطان رافانا فقط هو الذى يقلق زهاد الغابة ويثير مخاوفهم ويفربطهم بتترك الغابة حتى يصرفهم عن العبود والتامل والبحث عن الحكمة .. وكل ذلك يصور الدور البطولي للزهاد وكيف يحاربون الشياطين والاهواء وينتصرون بحكمتهم على مختلف انواع القوة والقهر ويتحولون الحكام العسكريين الى زهاد لا يتسلحون بالحكمة وينتصرون على الأرض ويصيرون تجسيدات للاله .. بل ان نزعة الشتاوم التي صبفت الفكر الهندي بعد الكتب الفيدية الاولى والثانية (٤٤) انما ترجع الى

الاب الكهل « دازارانا » Dasaratha لفيرة زوجته كايكاي Kaikayi وأطاع « راما » أباه وقبل النفي وخرجت معه زوجته المخلصة « سيتا » Sita بينما رفض بهاراتا الحكم ووضع خداء راما على العرش لعين عودته بعد القضاء مدة النفي ، والملحمة تصور المصائب التي واجهها « راما » في المنفي واناء تجواله في الغابات وتنقلاته بين الجبال وكيف حاربه « رافانا » Ravana الشيطان الشرير الذى طمع في زوجته « سيتا » وكيف اخلصت سيتا لrama رغم مختلف مغريات رافانا (٤٠) الذى استطاع راما ان يقضى عليه في النهاية ولكن الاقاويل انتشرت حول اقامة « سيتا » في قصر رافانا فالفت سيتا بنفسها في نار آجني فلم تحرقها وتأكد الجميع من اخلاصها وعفتها وان رافانا الذى كان يطلق النساك والزهاد في الغابات لم يستطع ان يغري سيتا الوفية (٤١) وعودتها مع راما واستقبال المواطنين لها .. وتولى راما الحكم ..

بينما الصراع في المهاباراتا يدور بين ابناء العم كوروس Kaurus وباندوس Pandus حول الحكم .. اذ لما تنازع ابناء العم على الحكم استطاع الكوروس بالغتى في الترد ان يخدعوا باندوس وينفوهם خارج الملكة (٤٢) لمدة ثلاثة عشر عاما واجبروهم على الحياة في الغابات وسكنى الجبال ، وتصور المهاباراتا الصعب والشاق التي واجهتهم في المنفي وكيف ان الاخوة باندوس الخمسة تزوجوا فتاة واحدة هي الاميرة دروبادي بعد صراع ممرين بين آرجونا Arjuna والامراء (٤٣) ولما انتهت مدة النفي وطالب باندوس بالعودة

-
- | | |
|---|------|
| ChandrasekharaAiyer, N. : Valmiki Ramayana, Bhavan's Book, Bombay, 1954. | (٤٠) |
| Tarapada Chowdhury : The Ramayana. (History of Philosophy: Eastern and Western) op. cit. | (٤١) |
| Raja Gopal Achari, C : Maha Bharata. Bhavan's Book, Bombay, 1953. | (٤٢) |
| Steel, F. A. : A Tale of Indian Heroes, Hutchinson, London, 1923. | (٤٣) |
| Dutt, R. C. : The Ramayana and the Mahabharata, Everyman, London, 1953. | (٤٤) |

والسياسية ونكشافان عن حكمة الهندو وفلسفاتهم وأساليبهم في المواجهة في غير ترتيب أو نظام وفي قوله مهوشة تخلط بين المنافضات فان ما يسودها من لمحات روحية كان دائماً مصدر الهم ل كثير من الشعراء والحكماء على مر الأجيال يجدد من حيوية المفاهيم الهندية الأصلية .. بل يمكن أن تعتبر كتب اليوبانيشاد قد استلهمت ايضاً هاتين الملحمتين وعرضت أصولهما الفكرية في قالب أكثر دقة وتنظيمًا واعمق وأوضح بحيث يجب أن نعدّهما من المصادر الأولى للديانة الهندوسية التي مهدت لظهور كتب اليوبانيشاد وما أتى بعدها من مذاهب هندوسية متطرفة لأن الغرامة الآخرين لم يهتموا بتجميل تعاليم السكان الأصليين الدين كانوا هائمين في الغابات مشغولين بحياتهم الصعبة عن أي شيء آخر وركز الغرامة اهتمامهم على تعاليمهم الدينية وأعطوا لها مزيداً من السيادة والنفوذ ، فطفت الديانة الوافية على الديانة الأصلية التي لم تجد منفذاً فيما بعد إلا في الأدب الشعبية التي لم تتناول في أول الأمر إلا باللغات الشعبية والهجاء العامية وكان انتشارها محصوراً في نطاق ضيق وما بدأ يتسع انتشارها إلا بعد أن استطاع السكان المنيقون أن يستقرروا بصورة أو باخرى .. هنا وهناك .. واستطاع زهاد الغابة أن يجدوا آذاناً صافية بين افراد الشعب خصوصاً هؤلاء الذين ضاقوا ذرعاً بتزمر رجال الدين وجشعهم في طلب الهبات والقرابين .. وما أن بدأت الأدب الشعبية تترجم إلى اللغة الرسمية الآرية « اللغة السنسكريتية » حتى حاول رجال الدين أن يفسحوا مكاناً لهم فيها ويضيفوا إشارات إليها في الكتب الفيدية رغبة في امتصاص تعليم هذه الأدب من ناحية وكسبيها لعاطف الجماهير من ناحية أخرى .. ثم صاغوها في قوله تساير صورهم سياسياً واجتماعياً فترتست الآلهة الفيدية والشعائر الفيدية إلى الرامايانا والمهباراتا ..

فإذا أردنا أن نفهم روح الهند الحقة يجب

ذلك النفي الذي دفع الهندو إلى أن يهيموا على وجوههم بغير مأوى في الغابات ويترعوا بالعواصف والأعاصير والمجاعات والآوبئة والموت بالجملة .. فلا شك في أن هذا النفي الجماعي لعب دوراً كبيراً في غرس النزعنة الشاؤمية في العقلية الهندية .. ولا جدال في أن حياة التقشف في المنفى فجرت نزوات الهندو الروحية وطورتها ، فنجد في الملحمتين أن قضايا التناصح والكارما ووحدة الكون وتجسيد الإله في الإنسان قد تم وصفها على أسس تختلف اختلافاً كلياً عن أسس الديانة الفيدية وإن الرهـد والتنـسـك وافتـزالـ الحياة والتأمل بطلب الحكمـة والطهـارـة منـ أجلـ الانـدـماـجـ فيـ اللهـ لاـ تـكـادـ نـجـدـ لهاـ الاـ اـسـتـارـاتـ دـخـيـلةـ فيـ رـجـ فـيـداـ لاـ تـنـسـجـ معـ بنـاءـ الـدـيـنـ الفـيـدـيـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـهـ اـسـبـفـتـ إـلـهـ أـضـافـةـ كـمـيـةـ فيـ زـمـنـ يـعـدـ التـقـصـ فيـ الـفـكـارـ الـرـوـحـيـةـ نـوـعاـ مـنـ التـخـلـفـ الـدـيـنـيـ .. وـاـنـ كـانـ يـوـجـدـ فـيـ الـرـاـمـاـيـاـنـاـ وـالـمـهـبـارـاتـاـ مـاـ يـفـدـ بـاـهـمـيـةـ مـعـرـفـةـ كـتـبـ الـفـيـداـ .. وـاـدـاءـ الشـعـائـرـ لـالـهـةـ رـجـ فـيـداـ قدـ يـرـجـعـ إـلـىـ مـحـاـوـلـاتـ شـعـبـيـةـ لـتـكـيفـ بـالـحـيـاةـ الـدـيـنـيـةـ السـائـنـةـ وـالـحـرـصـ عـلـىـ التـوـفـيقـ بـيـنـ جـمـيعـ الـاتـجـاهـاتـ الـمـقـائـدـيـةـ ..

ولذلك لا يجب أن ينظر إلى الرامايانا والمهباراتا على أنها مجرد ملحمتين من الأدب الشعبية دون أن نهتم بتحليل ما يدور فيهما من حوادث وما ننم عنه من تقاليد وما تشير إليه من مذاهب ونظريات وما ينبع منها من قيم ومبادئه إذا أردنا فعلاً أن نفهم تطور الفكر الهندى على أساس تفكير السكان الأصليين الذي احاطته الأفكار الآرية بكثير من الضباب - ويمكن أن يوضـحـ لـنـاـ سـبـبـ تـلـكـ الطـفـرةـ الـفـكـرـيـةـ بـيـنـ مـادـيـةـ الـدـيـانـةـ الـفـيـدـيـةـ وـتـمـسـكـهـاـ بـالـشـلـكـيـاتـ الـمـقـائـدـيـةـ وـرـوـحـائـيـةـ الـيـوـبـانـشـادـ وـاـنـطـلـاقـهـاـ مـنـ الـقـيـودـ الـمـادـيـةـ ..

فإذا كانت الرامايانا والمهباراتا تضمان تعاليم الهند وعاداتها وتعرضان مختلف اتجاهات حياتهم الاجتماعية والفكرية

الفيدية انما وضعها حكماء الفابة الذين لا يعرف منهم الا القليل مثل ياجفنا فالاكا (Uddalaka او اودالاكا Yajnavalkya) (٤٨) .. وان كان البراهمة يدعون أنها وحي من السماء .. ومعنى الكلمة يوبانيشاد غير واضح او محدد فان الكلمة « يوبا » Upa معناها « قريب من » وكلمة « ساد » Sad معناها « يجلس » فقد يقصد بكلمة « يوبانيشاد » الجلوس بالقرب من المعلم بهدف تلقى تعاليمه في جلسة خاصة سرية (٤٩) وذلك يوحى بان تعاليم اليوبانيشاد في اول الامر لم يكن يسمح لها بحرية التداول او ينم عن حرص من الحكماء والرهاد على عدم نشر هذه التعاليم الا من يوثق فيه من المربدين والتلاميذ والاباع في جلسات خاصة ..

وان كانت تعاليم اليوبانيشاد لم ت تعرض في نسق فلسفى منطقي او في بناء مذهبى بحكم التكوين (٥٠) .. وان كانت لا تعبر الا عن مجموعة من الاقصاص والخبرات والتجارب الروحية او نظريات رويت خلال حكايات بطريق الحوار .. وتنقل شفافها من فرد لفرد .. ولكنها مع ذلك تعد ايضا محاولة هامة لنجميع مختلف الاتجاهات الفكرية والدينية في الهند .. لقد حاولت التوفيق بين تعاليم الهندوس الاصليين التي لا شك في انها استمدت اصولها من الاساطير الهندية الاكثر منها قدما وبين التعاليم الفيدية التي جلبها الغزاة الاربيون بعد تنتقتها من الشوابيب التي تتناهى مع اصول الفكر الهندى (٥١) .. ذلك لأنها توطدت مع مرور السنين في النفوس وأصبحت اتجاهها من

أن نبدأ بدراسة آدابها التعبية القديمة من ملاحم واساطير فانها هي المدخل الحق لكتب اليوبانيشاد التي تعد من اعظم ما انتجته التراثية الهندية في عالم الفكر الدينى والفلسفى (٥٢) ولذلك ركز المفكرون المحدثون من الهند على دراستها لفهم الديانة الهندوسية الأصلية واعرضوا عن الكتب الفيدية الأولى لما تضمنه من خرافات وما تدعوه اليه من وثنية (٥٣) ..

لا جدال في أن كتب اليوبانيشاد تمثل عصرًا جديداً للفكر الهندي بخلف أخلاقياً كلياً عن العصر الفيدي .. وان اعتبار رجال الدين كتب اليوبانيشاد بمثابة كتب المرحلة الأخيرة للعصر الفيدي فيه كثير من المبالغة لأن ما تضمنه هذه الكتب من تعاليم نرفض الشعائر والقرابين أساس الديانة الفيدية ومن نظريات لا أصل لها في رج - فيما يدعو إلى القول بأن كتب اليوبانيشاد مستقلة عن كتب الفيدا وأنها بداية نهضة فكرية جديدة ظلت لسبب أو لآخر مطموسة لا يسمح لها بأن تبرز وتنضج وتسود ..

وبعد ظهور كتب اليوبانيشاد لا يمكن تحديده مثله في ذلك مثل جميع الكتب الفيدية والملاحم ولذلك ذهبت الآراء إلى أنها ظهرت أول ما ظهرت فيما بين الفرعين النافع والخامس قبل الميلاد وحتما قبل ظهور بودا لأنها تأثر بها (٥٤) ولم يضع رجال الدين كتب اليوبانيشاد ولم تصدر عن كهنة الآلهة

| | | | |
|---------------------|----------|---|------|
| Sushil Kumar | : | Maha Bharata (History of Philosophy Eastern & Western) | (٤٥) |
| | op. cit. | | |
| Barth, A. | : | Religion of India op. cit. | (٤٦) |
| Carpenter, M. | : | Last days of Rammohun Roy | (٤٧) |
| Bouquouet, A. C. | : | Hinduism, Hutchinson, London 1948. | (٤٨) |
| Mahadevan T. M. P : | : | The Upanishads. (History of Philosophy Eastern & Western) | (٤٩) |
| | op. cit. | | |
| Schweitzer, A. | : | Les Grands Pensours De L'inde, Payot, Paris 1962. | (٥٠) |
| Sen, K. M. | : | op. cit. | (٥١) |

واحدة وذلك لا يتم الا بعد اعتزال الحياة والترام الرهد والتلشف والتامل بحثاً عن حقيقة الوجود حتى يدركها ويؤمن بها (٥٣) .

فالله « برهمان » هو الوجود الحق الواحد يثبت في مختلف محتويات الوجود . . . لا يوجد شيء الا ويتجلّ فيه برهمان . . . وعلى الإنسان أن يبدأ بمعرفة الله الكامن في أعمق ذاته وفي غيره من الناس . . . ويعمل على أن يعرف الله في كل شيء يقابله ويجاهد من أجل أن يكتشف عن الله في مزيد من الأشياء دون توقف حتى يدرك أنه هو والله والأشياء حقيقة واحدة . . . وهنا يكون قد حقق ذاته وبلغ أعلى مرتبة من الكمال وهي مرتبة الألوهية (٥٤) الا ان هذه المرتبة تحتاج لجهاد روحي متواصل شاق طويل لا يمكن أن يتم انجازه في حياة واحدة او أكثر نظراً لأن كل فرد عرضة للخطيئة ولكن يتحقق الإنسان كماله لا بد أن يمر بعدد عديد من الحيوانات فكانت نظرية الناسخ التي تزعم أن الإنسان يولد بعد كل موت في حياة جديدة « ٥٥ » وتستمر هذه الولادات في سلسلة من الموت والولادة لا تنتهي الا بتحقيق كمال الذات . . . وفي كل ولادة جديدة يتشكل الرء في صورة حياة معينة حسب أعمال كل فرد في حياته السابقة . . . فكانت نظرية الكارما Karma (٥٦) التي مؤداها أن أفعال الإنسان هي التي تحدد نوع حياته المستقبلة فان كانت افعاله فاضلة خيراً كانت حياته الآتية أفضل من حياته الذاهبة وان كانت افعاله شريرة كانت حياته التالية أحط من حياته السابقة . . . ولذلك كان ناسخ الأرواح في أجساد البشر وأجسام الحيوان وسيقان البتات حسب الكارما اي

الجاهات الفكر الهندى ولا سبيل للتنصل منها او التناكر لها وان اعتراضت على ما تضمه من خرافات وتصورات خيالية ودعت الى التحلّي عن الشرف الحر في اداء الشعائر ورفضت تفريغ القرابين . . . ويكتفى كتب اليوبانيشاد أنها بعثت من جديد الفكر الهندى الاصيل في قلب روحى عميق يدعو للتأمل والتطور ولا يحبس الفكر الدينى ولا يعطي لكتنته حق السيطرة على العقول . . .

★ ★ *

ان كتاب اليوبانيشاد ليسوا فلاسفة من أصحاب المذاهب انما هم حكماء وعلماء سجلوا ما توصلوا اليه بالحدس في قصص بدأ عادة ببدائية روحية مثل « الكل برهمان » Brahman او « لا يوجد تعدد هنا » تدعوا لحوار يصاغ في أسلوب شاعري رمزي مجازي يكتسر من التشبيهات والكلنات مما جعل فهمها شاقاً وتفسيرها عسيراً وأنما الفرصة لتأويلات مختلفة استمرت منذ القدم حتى وقتنا الحاضر وأدت إلى نظريات فلسفية كثيرة الا ان اختلافها لا تتناول غير التفصيات الجرئية . أما الهيكل العام لنظرية اليوبانيشاد فيليس هناك اختلاف حوله ويتخذ أساساً لكل تفكير هندوكي (٥٢) والاتجاه السائد في فلسفة اليوبانيشاد يؤكد أن برهمان « الله » كامن في أعماق « الروح » وفي مختلف اجزاء الطبيعة . . . وأن حقيقة الوجود واحدة وان على كل انسان يريد الخلاص من عذاب الحياة وتوالي الولادات في الأرض ان يبرز الله الكامن في ذاته وفي الأشياء ويصير هو والله والأشياء حقيقة

Thomas, F. W. : Language and Early Literature (Legacy of India) op. cit. (٥٢)

Hiriyanna M. : op. cit. (٥٣)

Deussen, P. : Philosophy of the Upanishads, Edinburgh 1906. (٥٤)

٥٥ - عبد العزيز محمد الزكي : آثر عقيدة ناسخ الأرواح في حياة الهند : مجلة الكتاب . دار المعارف . القاهرة .

ابريل ١٩٥٢

Hiriyanna M. : The Essentials of Indian Philosophy, Allen-Unwin, London 1949. (٥٦)

تشملها جميعاً ويصير هو والله ومحظيات الكون حقيقة واحدة . . بذلك يتخلص من التناصح والكارما وعذاب الحياة (٥٩) ،

ويلاحظ أن طريق الخلاص اليوبانيشادي يقوم على المزلة والرهد والتأمل وليس فيه مكان لا له رج - فيدا . . مع ذلك فإن هناك اشارات وجدت في بعض كتب اليوبانيشاد تذكر أن طريق الحقيقة يجب أن تقترب بمعرفة تعاليم الكتب الفيدية علامة على تعاليم اليوبانيشاد (٦٠) وكل ذلك يشير إلى أن هناك محاولات بذلت من لدن رجال الدين من البراهمة لتنسب بعض التعاليم الفيدية إلى كتب اليوبانيشاد حتى تمت هذه الكتب يجعلها امتداداً لكتب الفيدا وتزعم في آخر الأمر أنها تعبّر عن نهاية الفيدا ، وأحسب أن أصحاب كتب اليوبانيشاد اضطروا للقبول بالتعاليم الفيدية حتى لا تلقى في وجوههم تهم الكفر والمرور وارتضوا نوعاً من التوفيق يحافظ على تعاليمهم . . ولما كانت كتب الفيدا واليوبانيشاد لم تدون بعد وترتادوا بسقاها كان المجال متسعًا أمام رجال الدين لاضافة تعاليم من اليوبانيشاد إلى الفيدا وإضافة تعاليم من الفيدا إلى اليوبانيشاد حتى يرى الجميع كيف أن للاليوبانيشاد أصولاً في الفيدا وكيف أن الفيدا ليست منقطعة الصلة باليوبانيشاد . . إلا أن هذه الإضافات لا يمكن أن تنكر من الواقع شيئاً وهو أن روح التعاليم الفيدية الشعائرية القرابينية تختلف كل الاختلاف روح تعاليم اليوبانيشاد في المزلة والرهد والتأمل . . وإن هناك نعرات ظهرت في القرن التاسع عشر

حسب الأفعال (٥٧) ولا سبيل للخلاص من تتابع الولادة والموت ومعاناة عذاب الحياة الأرضية في أي صورة من الصور إلا بمعرفة الحقيقة الأولى . . بطريق الخلاص يبدأ في العمل على التخلص من الانانية وحب المصلحة الذاتية والرغبة في النفع الشخصي والتتفوق المادي أنس كل شر يحجب الحقيقة ولا يتم ذلك إلا بعد أن يمر طالب الخلاص بمراحل أربع (٥٨) يدرّب خلالها على كيفية التخلص من الانانية . . في المرحلة الأولى يبدأ الشاب حياته كمريض يرافق الزاهد التنسك ويتعلّف منه العلم . . وفي المرحلة الثانية يتزوج حتى يصبح مسؤولاً عن أسرة وينجب أطفالاً ويصير آباً . . وفي المرحلة الثالثة يعيش هو وأسرته في الغابة بعيداً عن المدينة أو القرية . . وفي المرحلة الرابعة والأخيرة يعتزل الحياة والناس ويبعد حتى عن أسرته ويعيش في عزلة تامة زاهداً متنسكاً منقطعاً لتأمل الحقيقة لا يشغله أي شاغل عن بلوغ هذه الحقيقة . . والهدف من المرور بالمراحل الأربع أن يبدأ اليوبانيشادي بتلقي تعاليم اليوبانيشاد على يد استاذ متمن يجيد معرفة هذه التعاليم ويتقن تعليمها للفير ثم يأخذ في التفكير فيها حتى يستوعبها استيعاباً عميقاً وفي هذه الفترة لا يحتاج لعزلة مطلقة ويجب أن يعرف المسؤولية ويتحمل اعباءها في نطاق الأسرة والعمل ومتى أحس أنه في حاجة إلى التأمل الحر يجب أن يتخلص من كل ما يربطه بالحياة ويعوق هذا التأمل حتى يصل في النهاية إلى حقيقة الوحدة ويتحقق كمال ذاته ولا يشعر بأى نوع من التفاير أو الاختلاف بين الموجودات ويدرك أن هناك وحدة

٥٧ - عبد العزيز محمد الزكي : عقيدة تناصح الرواح : مجلة الثقافة عدد ٧٠٢ - لجنة التأليف والترجمة والنشر .
القاهرة - يونيو ١٩٥٢ .

Zimmer, H. : *Philosophies of India* Routledgs & Kegan, Paul London 1951. (٥٨)

Radhachrishnan, S. : *Hinduism. (Legacy of India)* op. cit. (٥٩)

Muller, F. M. : *The Upanishads.* Oxford 1926. (٦٠)

مكتنهم من اعلان تعابدهم التي جمعت فيما بعد في كتب اليوبانيشاد التي سارع البراهمة الى احتضانها ونسبوها للفيدية واعتبروها موحى بها من السماء وتجاهلوا أصحابها من الزهاد والحكماء الذين عرفوا بالتواضع وتجنبوا النزاع مع رجال الدين او السلطات الحاكمة وترك تعاليمهم لتنتشر في الغابة دون ضغط او الحاج فتسربت من الغابة الى المدينة واخذت بتبلغ التعاليم الفيدية شيئاً فشيئاً حتى استطاعت روحية الغابة ان تنتصر على خرافية المدينة دون قتال وتمتص تعاليم الفيدية وتقدّها كل مقوماتها الاسطورية والمادية وتبرز تعاليمها الروحية الأصيلة التي بهرت جميع العقول .. فرغم ان اغلبية هؤلاء الزهاد المعلمين لا ينتسبون الى البراهمة او الى الكشاتريا بل ان كثيراً منهم من الفيسيا والسودرا فان البراهمة سرعان ما استولوا على هذا التراث وادعوا انهم المسؤولون عن صيانته وتعليمها .. وأحسب ان هذا اعظم انتصار للفكر الهندى الأصيل على الفكر الارى الدخيل ..

الآن تعاليم اليوبانيشاد وما تدعوه اليه من حياة العزلة لا تخلو من سلبية ومن اعتبار الأرض مكان عذاب وألام ولا نجاة منها الا بالمجاهدات والرياضات لا تخلو كذلك من نظرية تناؤمية ترتبط بالهم الانسانية مما دعا الباحثين الغربيين في الفكر الهندى الى اتهام العقليّة الهندية بماليل للنزاعات السلبية التناؤمية التي تجعل الهندو يعرضون عن العمل والاشتراك في النشاطات الاجتماعية والاقتصادية .. ولا شك في أن الوعي الهندى ذاته احسن بهذه المفاهيم حين ادرك أنه اتخد من الزهاد المعتزل للحياة في ركن ناء بعيد عن المجتمعات في الغابة المشل الأعلى للانسان ويشهد على ذلك تلك البلبلة الفكرية التي المت بارجونا وهو مقبل على قتال الكوروس في كتاب «بها جافاد - جيتا» Bhagavad-gita .

الميلادى تمجد الأربية والديانة الفيدية ، فإن اغلبية المفكرين الهندود المحدثين يعتبرون الديانة الفيدية مليئة بالخرافات ومممتنة في الوينية ولا تعبر الا عن مرحلة من التفكير الدينى البدائى ظهر في طفولة الفكر الهندى . وان المصدر الرئيسي للدين الهندوى ي يجب ان يكون كتب اليوبانيشاد فقط (٦١) .

الآن اعتبار خرافية التعاليم الفيدية وامانها في تعدد الآلهة والوتنيّة على أنه مرحلة أولية في طفولة الفكر الهندى لا يعبر عن الواقع الحقيقي لنشأة الفكر الهندى في المصور القديمة . وان اعتبار الفكر اليوبانيشادى مرحلة تطورية للفكر الفيدى فيه خروج عن سنة التطور التدريجي لأن هناك هوة عميقة تفصل بين التعاليم الفيدية والتعاليم اليوبانيشادية حيث ان أصول كل منها تختلف عن الأخرى .. فالتعاليم الفيدية جذورها آرية وآفلة مع القبائل الفازية من خارج الهند .. وجذور التعاليم اليوبانيشادية أصلية ظهرت في الهند قبل مجيء الآريين وكانت معروفة لسكان الهند الأصليين الذين فرض عليهم الطرد والنفي في القبائل فأخذوا معهم تعاليمهم التي نظرت في احسان الغبات ورفضت الشعائر الفيدية القرابينية مما دعا الآريين الى احتقارهم ورميهم بالخروج عن طاعتهم والولاء لدولتهم وعدم احترامهم لقوانين البلاد .. وظل السكان الأصليون يتداولون تعاليمهم سرًا في القبائل الى ان اضعف الصراع بين البراهمة والكشاتريا على السيادة نفوذ السلطات الحاكمة واتاح للزهاد والنساك فرص استعادة السكان الأصليين لقوتهم .. اذ كان هؤلاء الزهاد والحكماء غالباً على الحياد فتقديموا الصفواف واخذ يتقارب اليهم الحكم من الكشاتريا ليكسرها شوكة البراهمة ، ويقترب اليهم البراهمة ليستعينوا بهالتهم الروحية في الصمود امام الكشاتريا .. وكل ذلك منح زهاد الغابة قسطاً كبيراً من الحرية

الباندوس الخمسة الى بلادهم .. فضل أن يستعين بحكمة كريشنا بخلاف الكوروس الذين طلبوا منه العون العسكري .. وعندما تأهب للقتال انتابته بعض الانفعالات التي بللت تفكيره اذ كيف يقدم على قتال ابناء عمه وأقاربه وزملائه ورفاق الصفر !! وحتى اذا انزل بهم الهزيمة فان نهاية القتال ستكون هلاك الجميع وتدمير البلاد .. ولما احس كريشنا بما عليه آرجونا من تمرق ذهني واضطراب فكري في ان يحارب او لا يحارب دخل معه في نقاش طويل وطالبه بأن يؤدى ما عليه من واجب كمقاتل عمله الاساسي هو الحرب والقتال ويقبل على القتال دون بوعث مادية او اغراض ذاتية او انتظار نمرة ما من وراء اداء هذا الواجب .. ولذلك يجب الا يتوقف عن القتال ما دام القتال هو العمل الواجب .. وأن الامتناع عن اداء الواجب ليس الطريق السليم لتحقيق الكمال .. وكذلك يجب الا تطفي على وعيه مشاعر الشفقة والرحمة والأسى على القتلى لان الحكماء لا يعنون بالموت او الحياة اذ انه لم يكن هناك زمن لا يوجد فيه موت وحياة وان يكون هناك زمن ليس فيه موت وحياة .. فقد تنتهي الاجساد ولكن الارواح باقية من الارل الى الابد .. فلا يوجد اذن ما يدعوا الى توقف القتال ما دام خوض الوغى ما هو الا اداء الواجب .. وبعد حوار طويل استفرق معظم الجيتا تخلص آرجونا مما انتابه من تمرق وبللة واقتنيع باراء كريشنا ودخل في قتال عنيف مع الكوروس انتهى بموتهم جميعا ولم يبق الا الاخوة باندوس وكريشنا وتولى آرجونا الحكم ومن بعده اخوه وأحفاده بينما تجسد الاله فشنوا في كريشنا واصبح

ان كلمة « بهاجافاد - جيتا » معناها « انشودة الرب » وهي عنوان كتاب يحاول ان يعالج مشكلة العمل أو عدم العمل كوسيلة من وسائل كمال الذات . ولقد اختلفت الآراء حول تحديد تاريخ وضعه ويرجح انه تم تأليفه فيما بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد .. بل اختلفت الآراء كذلك حول وضعه بين الكتب الهندية فكتاب الجيتا ينسب الى فياسا Vyasa مؤلف المهاباراتا الاسطوري .. ولذلك يرى بعض المفكرين انه فصل من فصول المهاباراتا كان منفصلا ثم أضيف الى هذه الملحمة في مصر متاخر نظرا لانه حوار طويل دار بين آرجونا بطل الباندوس فى المهاباراتا وبين قائد هربته الحرية كريشنا قبل بدء القتال بين ابناء العم (٦٢) بينما يعتبره البعض الآخر احد كتب اليوبانيشاد المتأخرة لانه ينادي بتعاليم مستمدة من اليوبانيشادية ويمثل على تطويرها (٦٣) وهناك رأى ثالث يزعم ان الجيتا Gita ما هي الا محاولة للتوفيق بين التعاليم الشعبية في ديانة فشنو الذى تجسد له كريشنا و تعاليم الخاصة في اليوبانيشاد (٦٤) ونظرا لان كتاب الجيتا يجمع بين الاتجاهات الدينية الشعبية والأفكار الفلسفية فقد كان له اثر كبير على الحياة الفكرية في الهند وانحدرته الديانة الفشنوية على انه كتابها المقدس واستمدت منه مذاهب فلسفية تقوم على الثنائية .. وبذلك سيطر على المقادير والفلسفات ..

ومضمون قصة الجيتا ان آرجونا Arjuna زعيم الباندوس بعد ان جهز جيشه واستعد لقتال الكوروس الذين رفضوا عودة الاخوة

Huxley, A. : Introduction to the Bhagavad-Gita. Mentor Books, (٦٢)

New York 1956

Radhakrishnan, S. : The Bhagavadgita, Allen & Unwin London 1948. (٦٣)

Sushil Kumar : The Epics, (History of Ph. Eastern & Western) op. cip. (٦٤)

ندع الله يتجسد في انسان كلما احتاج عصر من المصور الى الله مشخص يهديه سواء السبيل ومن هنا كانت الفتنة التي ثرّع ان للاله فشّنوا عشر تجسدات ..

لا ريب في أن الجيتا بما تدعوه إليه من عمل وما نسم به من صبغة شعبية وما أتيح لها من فرص الانتشار بين جموع الناس وخاصتهم فد امطت المفكرين المعاصرين من الأسباب ما جعلهم يرفضون اهتمامات المستشرقيين بسلبية العقلية الهندية وميلها للتشاؤم المنفر من العمل ونزوعها لنوع من الكمال الشخصي دون الاهتمام بالمجتمع والكمال الاجتماعي لأن مثلها الأعلى هو الزائد المنقطع عن الناس والمجتمعات لا يشغله في عزائه غير تحقيق كماله الدائري .. ذلك لأن الجيتا تدعو إلى ضرورة إداء الواجب وعمله على أحسن وجه وتحاول أن تففّع موقعاً وسطاً بين انفاس رجال الدين الفيدى في الحياة الاجتماعية وتکاليفهم على الهبات وتمسكهم بالقربين الفالية الشمن وبين زهاد الغابة الدين قطعوا كل صلاتهم بالحياة الاجتماعية وبغاللون في كبت الحواس والشهوات ويحرمون أنفسهم من كل شيء .. ونظراً لأن تعاليم الجيتا لاقت ذيوعاً وانتشاراً في الأوساط الشعبية قبل أوساط الخاصة فإنها لا شك عبر تعبيراً صادقاً عن التزارات العقلية الهندية الأصلية .. وهي أن دمت إلى العمل والتمسك بأوّل جب دون أناية فإنها لم تفترط في القيم الروحية .. وكل هذا يدفع إلى دفع اهتمام العقلية الهندية بالسلبية وتجنب المشاكل الاجتماعية تحت تأثير نظرية تشاورية ويشهد على أنها تضع دائلما الروحية فوق كل اعتبار ..

ولم يفت البراهمة أن يمتصّوا تعاليم الجيتا في العمل ولم يلعنوا فكرتها تمر دون أن يستغلوها في توطيد تعاليمهم فإذا بهم يعتبرون أداء الشعائر وتقريب القراءين عملاً والحرص على عدم الخروج من نظم الطوائف الأربع

الله المختص لهذا العصر يرشد الناس إلى الحق الإلهي ..

ويرى المفكرون الهندو المحدثون (٦٥) في الجيتا دعوة عامة للناس - الذين تبللت عقولهم بسبب العقائد المتعارضة السائدة التي تنفر من العيادة أو تلزمهم بتقديم قرائين باهظة التكاليف - لاتباع حياة دينيه لا تسبب لهم القلق وتحقق لهم الطمأنينة فيمكنهم أن يعيشوا حياتهم اليومية المترتبة والاجتماعية وحياتهم العامة السياسية والاقتصادية وإن يتحققوا خلاص أرواحهم في نفس الوقت .. فعلى كل فرد أن يؤدى واجبات أعماله دون أناية .. إن اعتزال الحياة ليس معناه سحق الرغبات وازالتها أو التخلّى عن أي عمل أو التوقف كليّة إلى درجة الجمود .. إنما هو مجرد العمل دون أناية .. وذلك يتم بسيطرة العقل على الحواس وحسن توجيه الأعضاء العاملة حتى يمكن أن تحرر الروح العليا الروح السفلي من تناقضاتها .. ولكن يجب الا نقضى على الحواس او نجعل وظائف الأعضاء التي تعمل ..

وان كانت الجيتا مثل اليوبانيشاد تدعو إلى الله واحد فان كلًا من اليوبانيشاد والجيتا تصور الله الواحد في ثالوث مكون من بraham - فشنو - سيفا : أما عن بraham فهو خالق الكون وكامن في شتى أجزائه .. بينما فشنو يحفظ الكون ويحميه .. في حين يقضى سيفا على كل ما يتعرض له الوجود من خطروتهديد وشر .. وهذا الثالوث ينم عن حقيقة واحدة . اي عن ثلاثة احوال لله واحد .. وان كانت اليوبانيشاد تکاد ترى الله في كل الكائنات وان الطبيعة فان الجيتا تميز بين الروح والمادة . فالروح خالدة والجسد فان .. وان كانت اليوبانيشاد تکاد ترى الله في كل الكائنات وان الانسان عليه ان يسعى ليراه في نفسه وفي الناس وفي الأشياء حتى يصير هو الله - فان الجيتا

الشعب خارج الغابة ولم يشيدوا بذلك أحد منهم أو يعطوا له شيئاً من الأهمية الروحية أو التاريخية إلا إذا كان ذلك يفيده في توسيع مكانتهم الدينية، ويسعى التعاليم الفيدية .. ولذلك لا تكاد نسمع إلا عن فلة من الزهاد في الكتب الفيدية مع أنهم كانوا منتشرين في كل مكان في الغابات وما ورد من اسمائهم أشبه بالأسماه الأسطورية ولم يتزد ذكرها إلا في الأساطير الشعبية والملاحم التي لا تكاد تنهي عن سيرتهم بشيء أو تنسى اليهم تعاليم خاصة منفصلة عن التعاليم السائدة ولا تذكر لهم فضلاً إلا في أنهم قاموا بجمع هذا الكتاب أو ذلك ..

وعندما اهتز مركز الآلهة الفيدية عند انتشار تعاليم اليوهانيساد سرعان ما امتصت الفيدية اليوهانيسادية ، وبعد أن كان لا يوجد غير آلهة رج - فيEDA على قمة الوجود سمحت بان يتجسد الآله في انسان كامل من غير البراهمة وتعطى له صفات الالوهية وذلك عندما ذات بطلة بعض رجال الحكم من الكشانيس في ميادين القتال ونافسوا البراهمة في النفوذ وبعد الصيت .. فإذا بهم يعتقدون في تجسدات لكل الله من الثالوث اليوهانيسادي المكون من برهمان الخالق وفسنو الحافظ وسيفا المدمر .. ومع ذلك لم تثبت القيادة الدينية للبراهمة ولم تستطع أن تصمد أكثر من ذلك لأنها تحبط الشعائر الدينية بهالة من الت Dispensability الفاضحة المبهمة وتغالي في طلب هبات القرابين للآلهة في وقت بدأت تسود فيه الحرية الفكرية .. فمن الطبيعي أن يظهر افراد في هذا الوسط الفكري والديني يناقشون أسس التعاليم الفيدية واليوهانيسادية ويهبون في تحليلها سنتي المذهب فكان فلسفات Karvaka Buddha وجينا Jaina وبودا Karvaka التي قامت أساساً على انكار الشكليات الدينية

عملاً آخر وفعالية الحواس وقهـر الشهوات وتطهـير الروح عملاً ثالثاً .. والبراهمة هنا يخلطـون بين الاعمال الفردية والطائفـة والدينـية مما يدلـ على أن مفهـوم العمل لم يتـطور التـطور الكامل في نطاق العـقيدة الهندـوكـية ليـوفـقـ بين الـهدفـ الـديـنـيـ والـهـدـفـ الـاجـتمـاعـيـ .. ولم يتمـ هذا التـطورـ الاـ فيـ العـصـرـ الحـدـيثـ ابـتدـاءـ منـ رـامـوـهـانـ روـيـ (٦٦)ـ إلىـ طـاغـورـ (٦٧)ـ وـغـانـدـيـ الـذـهـبـواـ إلىـ آـنـهـ يـمـكـنـ رـؤـيـةـ اللهـ فيـ أـىـ عـلـمـ سـوـاءـ أـكـانـ فـرـديـاـ إـمـ اـجـتمـاعـياـ وـانـ الـعـمـلـ كـلـمـاـ اـكـتـمـلـ اـنـضـحـتـ رـؤـيـةـ اللهـ ..

وننتهي من سيادة الفكر اليوهانيسادي الى ان ما تضمه الملاحم واليوهانيساد والجيـتاـ من تعاليم قد أعطـى زـهـادـ الغـابـةـ أهمـيـةـ تـفـوقـ أهمـيـةـ رجالـ الـدـينـ حتىـ أـخـدـتـ مـكـانـتـهـ تـعـظـمـ شـيـئـاـ بـيـنـ النـاسـ .. وـانـ مـاـ اـتـارـهـ هـذـهـ التعـالـيمـ مـنـ اـتـجـاهـاتـ سـاعـدـ عـلـىـ بـرـوغـ حـرـكةـ فـكـرـيةـ حرـةـ لـاـ تـقـبـلـ التـقيـدـ بـالـفـكـرـ الـفـيـدـيـ اوـ بـالـفـكـرـ الـيـوـهـانـيـسـادـيـ ..

٣ - الفكر العـرـ (٦٨)

لقد تبين كيف استطاع البراهمة بطريقة أو باخرى أن ينسبوا لأنفسهم جميع اتجاهات زـهـادـ الغـابـةـ الروـحـيـةـ والـفـكـرـيـةـ .. وـنـجـحـواـ فيـ أنـ يـجـمعـواـ تعـالـيمـ الـيـوـهـانـيـسـادـ وـيـضـمـوـهاـ لـفـكـرـ الفـيـدـيـ وـيـضـيـفـواـ إـلـيـهاـ مـاـ يـؤـكـدـ انـ أـصـولـ هـذـهـ التعـالـيمـ مـسـتـمـدـ أـصـلـاـ مـنـ الـفـكـرـ الـفـيـدـيـ وـماـ اـتـتـ بـهـ مـنـ تـجـدـيـدـاتـ مـاـ هـوـ إـلـاـ نـوـعـ مـنـ التـطـوـرـ الـفـكـرـيـ .. وـبـذـكـرـ اـسـتـطـاعـ الـبـراـهـمـةـ مـنـ سـكـانـ المـدـنـ أـنـ يـمـتـصـوـاـ تعـالـيمـ الـكـثـيرـ مـنـ زـهـادـ الغـابـةـ حتىـ لاـ يـفـلـتـ الرـامـ الدـينـيـ مـنـ أـيـدـيـهـمـ .. فـلـمـ يـسـمـحـواـ وـهـمـ فيـ عـنـفـوـانـ قـوـتـهـمـ لـأـيـ زـاهـدـ مـنـ هـؤـلـاءـ الزـهـادـ أـنـ يـوـطـدـ نـفـوذـ الـرـوـحـيـ بـيـنـ جـمـوعـ

(٦٦) Lamb, B. P. : India — A world in Transition. Frederick A Praeger, New York 1963.

(٦٧) عبد العزيز محمد الزكي : طاغور الصوفي : مجلة المجلة . العدد ٩٣ . المؤسسة العامة المصرية للتأليف والنشر . القاهرة - ١٩٦٤ .

(٦٨) عبد العزيز محمد الزكي : غالدي بين التصوف والجهاد السياسي ، مجلة المجلة . العدد ١٥٦ دسمبر ١٩٦٩ .

وصل إلينا منها جاء عن طريق ما روطه الكتب الجينية والبودية في معرض سياق انتقادها لإنجعات الفلسفة المادية الصرفة . . . إذ لم يحاول أحد أن يحافظ على أقوال كارفاكا أو اتباعه أو يجمع أصول هذه الفلسفة او يصنفها في كتب كما حدث بالنسبة للجينية او البودية . . . وتعتبر حركة كارفاكا من أقدم الحركات الانقادية للفكر الفيدى والفكر اليوبانيشادى لأنها لعبت أول دور هام في تحريك جمود الفكر البرهمي بما ادارته من آراء مادية ضحت بقيم الهندود الروحية في سبيل تخلصهم من رغيف رجال الدين . . . والكارفاكية اشبه ما تكون بالحركة السوفسطائية التي قامت في بلاد اليونان فيما بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ودعت إلى ظهور فلسفات سocrates وأفلاطون وأرسطو . . . فالكارفاكية تعتمد على طلاقة اللسان وقوة البيان وتنسيق الكلام في إنكار الآلهة والأرواح والبعث والخلود والقيبيات وال مجردات وتوقف عند حد الطبيعة المحسوسة والحياة الدنيا . . .

ومادية الكارفاكية لم تكن شيئاً جديداً على الفكر الهندى فقد ورد ذكر أسماء كثيرة من الملحدين في رج - فيدا واليوپانيشاد والرامابيانا والأساطير الشعبية أهمها : بربها سباتي Brhaspati وجافالي Javali وفيها Vena واجيتاكيسا Ajita kesā الا أن هذه الأسماء لم تستطع ان تلمع في الفكر الجماعي ولم يستهر اسم كارفاكا ومربيده لوكيما Laukya الا لأنهما ظهرا في عصر الحرية الفكرية في الهند . . . ونظراً لأن المذهب المادى يتعارض أساساً مع مقومات الفكر الهندى فقد اعتبر الكثيرون كارفاكا أسماء اسطورية يرمز إلى اتجاه الحادى سوفسطائي يعارض البيانات السائدة ولذلك اتخد لفظ كارفاكا كمرادف لفضاحة اللسان وقوفه على بيان ، وبهذا يمكن ان يجعل لفظ السوفسطائية اليونانية

والخرافات والأساطير وحرست على ان تخرج من الغابة وتنشر في المدن والقرى ولم يستطع البراهمة الوقوف امامها لانها تأييدها من الكشاثريا التي ضاقت ذرعاً بنفوذ البراهمة . . وكل ذلك ساعد على تألاق الفكر الفردى الذى لم يسمح به الفكر الفيدى او الفكر اليوبانيشادى . . وظهور الفكر الفردى الحر حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد هو في الحقيقة ظاهرة طبيعية في مجال تطور الفكر الهندى القديم وان كان يعتبر ثورة على اوضاع دينية تجمدت وفسدت اذ سمحت بسيطرة بعض المحترفين من رجال الدين الذين يعوقون التطور الفكرى والفلسفى . . ولم يستطع أحد من البراهمة منع انتشار تعاليم جينا وبوذا بل افسحوا لها المجال بعد ان نالت تأييد الحكم من الكشاثريين الذين هم من صلب العائلات الهندية القديمة (٦٩) التي لم تخضع للنفوذ الارى او لم يتمكن الاريون من الاستيلاء على اراضيها وحافظت على اصالتها وضاقت بسيادة التعاليم الازية التي جعلت الآلهة البراهمة سلطاناً دينياً ما بعده من سلطان والارت المخوف من المرض والشيخوخة والموت الى حد من الرعب اوهم الكثيرون بأن في يد البراهمة مقاييد السعادة في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة وان رفض اداء النعمان وتفريج القرابين يعني المروء من الحياة خلاصاً من آلامها ومتاعبها . . فاذا بكارفاكا وجينا وبهذا ينكرون وجود الآلهة ويرفضون تقريب القرابين لها ويعلمون الناس طرقاً جديدة للخلاص من آلام الحياة باللغة التعبوية التي يحسن فيها الجميع ويهملون اللغة السنسكريتية التي لا يعرفها الا البراهمة . .

الآن تعاليم كارفاكا لم تلق التأييد الذى لا يقتصر كل من الجينية والبودية وذلك لتفاilihا في المادية وانكارها لكل ما يتعذر الحسن . . ان معرفتنا بفلسفة كارفاكا غير كاملة وأغلب ما

صحبة الآلهة وتحقيق السعادة المطلقة لا دليل عليه ولا سبيل الى معرفته او التحقق من صدقه (٧١) .

ان سبيل معرفتنا الوحيد هو الادراك الحسى المباشر الذى يدرك جزئيات الطبيعة ومكوناتها الفردية المنفصلة .. ولا يملك أحد ان يتدرج من هذه الجزئيات الى حقائق كليلة تعددتها لأن الحقائق الجزرية عرضة للتغير بينما الحقائق الكلية تستدعي الثبات والدوم فهي بذلك تخالف الجزئيات .. كما أن الحقائق الكلية تدخل في نطاقها جميع الحقائق الجزرية التي حدثت في الماضي وتحدث في الحاضر عن طريق المشاهدة فكيف يمكن أن نتأكد من صدقها في المستقبل ؟ كما انه لا يمكن أن ندخل جميع الجزئيات في الحاضر داخل نطاق الكليات وتكتفي بمشاهدة عينات منها ثم نعلن عن تعميمات .. ان المعرفة التي تقوم على الاستدلال الذى يتدرج من المدركات الحسية الى التعميمات ومن الجزئيات الى الكليات فيها خروج عن نطاق الادراك الحسى ووقوع في هاوية الظن والتخمين والاعتراف بوجود كليات تجمع بين خصائص عامة لا توجد بحالة واحدة في مختلف مدركات الحس المفيرة .. ولذلك رفض الكارفاكية الاستدلال والاستقراء واكتفوا بالمعرفة الحسية المباشرة التي تقف عند الجزئيات دون ان تطمع في ان تصل الى كليات (٧٢) وما دام الادراك الحسى هو وسيلنا الوحيدة الى المعرفة فان كل ما هو في متناول الحس حقيقي .. وان كل ما هو خارج عن نطاق الادراك الحسى مشكوك فيه ولا يجب ان يكون موضوع اهتمام احد اذا لا يمكن اتخاذ الاستدلال او الاستقراء وسيلة للمعرفة الصحيحة لان الاستدلال ينتهي الى علاقات كلية لا يستطيع الادراك الحسى ان يتوصل اليها لانه لا يستطيع ان يقفر من الجزئيات الى

محل لفظ الكارفاكية الهندية .. لأن الكارفاكية لعبت نفس دور السوفسطالية في التمهيد لحركة فكرية تتخلل من الفرائض الدينية وتقوض نفوذ رجال الدين بالجدل والنقاش والحوار الذى يعتمد أساسا على فصاحة اللسان ..

ان الكارفاكية تنكر أول ما تنكر الآلهة فلا يوجد الله للخلق وآخر للمحافظة على المخلوقات، وكل شيء وجد بالصدفة حسب الطبيعة ويحيى ويدهب بالصدفة .. ولا يوجد هناك ارواح تبقى بعد الموت فليس هناك حياة اخرى تصعد فيها الارواح الى السماء لتصاحب الآلهة او لتندمج فيها لان حياتنا لن تكرر مرة ثانية وما علينا الا ان نستمتع بهذه الحياة التي نعيشها الان نسعى وراء اللذة والسعادة الحالية قبل ان نفقد الحياة بغير عودة .. فلا التشاؤم يفيد ولا اعتبار الحياة قائمة على الالم والحزن ينفع .. ولا الهروب من الحياة والانقطاع في غار وممارسة المجاهدات والرياضات يجعلى .. فان الحياة ليست مليئة بالحزن او انها كلها احزان في احزان بل ان ما فيها من سرور يفوق بكثير ما يوجد فيها من الام وان الحياة الحالية من الالام لا معنى لها اذا لا يمكن ان نستمتع بلذة السرور ما لم نكن قد سبق ان الم بنا الحزن والالم .. وان البحث عن السعادة المطلقة التي لا تسوها الالم لا يمكن ان يوفر سعادة دائمة لان الانسان سرعان ما يمل ونادة السعادة واستمرارها على نمط واحد لا يتغير .. ولا يوجد حيوية السعادة والاستمتاع بها الا الحزن والالم .. فلا يوجد ما يدفعه للهرب من الحياة والنفور منها وتعديل الجسد بل يجب البحث عن المتعة حيثما وجدت .. فان هذه الحياة لا تعيش ولا سبيل لنا للمودة اليها وكل ما يقال عن بقاء الروح والتناسخ والكارما والحياة في

(٧١) نفس المرجع السابق .

Dakshinaranjan Bhattacharya and Others : The Caravaka Philosophy, (History (٧٢) of Ph. Eastern & Western), op. cit.

نلاحظ الشعور والوعي مرتبطين بالجسد فان الواقع أيضا لا يعطينا وعيأ منفصلا عن الجسد .. ان الفكر ليس الا مجرد وظيفة من وظائف الجسد المختلفة .. وان الاحساس خاصية من خصصيات الطبيعة الجسدية فعندهما اقوال «أنا نجيف» او «انا سمين» فانا هنا لا اعني غير الجسد .. فلا يوجد هناك روح اساسى مختلف المركبات وان الجسد ذاته هو الروح يبلى بالموت ويتحلل الى عناصره ولا تبقى روح تنفساً وتولد من جديد او تصعد للسماء او تتحقق السعادة المطلقة في صحبة الالله .. او تندمج في الله .. فالروح لا يبعث في اية صورة من الصور ولا حياة للانسان بعد هذه الحياة ولا بقاء الا للمادة بعناصرها الأربعية فهي الخالدة ابدا .. ولا يوجد ما يدعوه لتعديل الجسد او تقريب القرابين بحثاً عن سعادة لا توجد في غير الارض ..

اما عن الالهة فليس لها اى وجود كذلك .. وما تستند اليه من اقوال في الكتب المقدسة لا يلزمها بقبول وجودها .. كما ان الاستدلال على وجودها استدلال غير جائز مشكوك فيه لانه لا يقوم على الواقع المحسوس .. وان اعتبارها علة المخلوقات ليس من دليل مادى عليه ، اذ لا توجد اية علة ثابتة او قدرة منتجة لكل حدث .. انما الموجودات والاحاديث تقع تلقائيا وبمحض الصدفة وتصدر عن طبائع الاتساع وليس من خلق اي كائن لا يقدر على ادراكه انسان .. فلا يوجد ادنى ما يدعونا الى قبول تعاليم الكتب الفيدية وهى مليئة بالابهام والغموض والخرافات والتناقضات او الى مناقشة حقائق لا تتحقق في الوجود ابدا .. وبالتالي فلا يوجد ما يلزمها باداء الفرائض وتقريب القرابين التي يلعن على تكليفنا بها رجال الدين ، ولا امل لنا في حياة جديدة بعد الموت في صحبة الالله .. فهذه مجرد عقائد خرافية يدعوا اليها بعض المخدعين الذين يتعيشون على الادعاءات التي لا سند لها من الواقع ..

الكليات وحتى اذا استعن بمشاهدة الغير فان الكليات لا يمكن ان تشمل جميع الجزئيات على اختلاف احوالها .. ولذلك استبعدت الكارفاكية الاستدلال كوسيلة من وسائل المعرفة .. ولكن الحياة اليومية بل مناقشات الكارفاكيين انفسهم لا يمكن ان تقوم بغیر استدلال .. ان الكارفاكية لا تقبل الاستدلال الا في حدود الظواهر الطبيعية بحيث لا تتعداها الى تعميمات وتستخدمه كذلك في دحض التعاليم غير المادية دون ان تحاول الوصول الى اى نوع من التعميم وتكتفي بما تشيره من شكوك حول اى تعاليم تستند الى حقائق كلية من اى نوع يعجز البشر عن ادراكتها (٧٣) .

واذا ما حللت الطبيعة لا نجد غير العناصر الاربعة من تراب وماء ونار وهواء، اما عن المكان الذي يقال انه يدرك عن طريق الاستدلال فلم تعرف الكارفاكية بوجوده لخروجه عن نطاق الادراك الحسي .. ومن هذه العناصر الاربعة تكون كل موجودات الطبيعة سواء كانت كائنات حية ام غير حية .. اما ما يقال عن وجود الروح والوعي في جسد الانسان فلا يعبر عن الحقيقة لأن تحليل الجسد لا يضع ايدينا على روح او وعي .. ولنست الروح الا حالة من حالات الجسد ترجع الى كيفية تركيب العناصر الاربعة فيه وكذلك الوعي فهو ايضا حالة من حالات الجسد وان صدور الظاهرات الذهنية يشبه حالة التخمر التي تنتبع عن مزج عناصر مادية بطريقة معينة لا تتميز اي منها بخاصية التخمر واذا ما حللت هذه الاجسام المركبة عاد كل عنصر من عناصرها الاربعة الى عنصره الاصلي ولا يبقى هناك روح او وعي او تخمير .. ان تنوع غرائز الطيور والحيوانات وحدة اشواك الزهور وحلاؤه قصب السكر ما هي الا حالة من احوال تكوين العناصر تزول بمجرد تحل حلها الكائن او ذاك .. واذا كان الواقع يجعلنا دائما

ولكن قصر هدف الحياة على البحث عن اللذة والاستمتاع بها في هذه الدنيا قد يدعو لنوع من الصراع بين الأفراد يشير إلى الآثانية والاحقاد وعرض المجتمع للاضطراب والأخطر .. وإن كانت التعاليم الكارفاكية التي وصلت إلينا لا تتعارض لصلة اللذة الحسية بالآثانية ولم تناقش الأضرار التي تعود على المجتمع من انتصاف كل فرد فيه إلى البحث عن منعنه الشخصية .. إلا أن الكارفاكية لا تميز بين الأفراد في المجتمع ولا تصنفهم في طبقات حسب الولادة والنسب واللون والعمل ، بل كل الناس سواسية وإن الضبط الاجتماعي ينسقه الحاكم الذي هو الله الواحد على الأرض الذي يمكن أن يدركه أي فرد دون حاجة إلى أي نوع من الاستدلال وطاعته واجبة .. وقد يكون هناك آراء عملية نفعية للكارفاكية في نظم الحكم إلا أن المذاهب الدينية من جينية وبودية وهندووكية التي ناقشت تعاليم كارفاكيا لم تتعرض كما سبق أن ذكرت إلا للمذهب المادي ويجوز أنها لم تهتم بمناقشة مذهبها في نظم الحكم الذي ورث عنه إشارات عابرة لأن هذه الأديان لم تهتم إلا بمستقبل الإنسان بعيداً عن الحياة الدنيا وأهملت مستقبله على الأرض ..

ولا شك في أن الكارفاكية تعرضت لجميع القيم الدينية السائدة حوالي القرن السادس قبل الميلاد وأمارات الشكوك حولها .. وإذا لم تستطع تكوين جماعات تدعو لتعاليمها فإنها في الأصل لا تهدف إلى تكوين جماعات دينية إذ أنها ما قامت إلا من أجل نقد المقالد وما رضيت أن تقف عند هذا الحد إلا لكي تتجنب الانزلاق في تيه من الفموض والخرافات والشكوك .. إلا أن هذا النقد لم يحل المشكلة الدينية التي أثارها الفكر الحر الذي ضاق ذرعاً بتزمرت رجال الدين ولم يقر في الوقت نفسه التعاليم الكارفاكية التي تغالي في المادية وتحطم كل مقومات القيم الروحية التي

فالله لا تدفع ضرراً أو تجلب خيراً .. وإذا كان هناك الله قوي يعرف كل شيء فلماذا لا يزيل تلك التشكوك من حول وجوده بالتحدث مع أبناءه ؟ ولا يمكن أن يقال عن الله أنه يقدر أن يميز بين أفعالنا الخيرة والشريرة والا اتهم بالمحاباة والتحيز (٧٤) .

وطريق الخلاص من الحياة يكون بالبحث عن المتعة والسعادة ومقابلتها بابتسامة حلوة تدفع لطلب المزيد من المتعة والسعادة في هذه الحياة الدنيا .. حقيقة لا توجد متعلمة دون أن يتخللها الألم .. ولكن هل يعني ذلك أن لا تأكل السمك لمجرد أن به اتسواكاً أو تتجنب تناول الأرز بسبب القشر أو تختتن عن قطف الزهور حتى لا تؤذينا أشواها الجارحة ؟ يجب أن نواجه الحياة كما هي بسجاعة .. بل إن ما فيها من سرور يفوق بكثير ما فيها من آلام .. إن بسمة الابن البريئة تفمنا بالسعادة وأن موت الآخ يحزننا ولكن لا يمكن أن نشعر بذلك السعادة إلا إذا قاسينا من وجع الألم .. إن السعادة الدائمة المستمرة لا طعم لها إذا لم يتخللها بعض الآلام التي تجدد من حيواتها فالآلام ليست كلها شراً .. إننا لا نستطيع أن نستمتع بلدة الشبع ما لم نحس آلام الجوع .. وكلما زاد عطتنا عظم استعدادنا للبقاء البارد .. وكم تكون سعادة الحبيبين عند اللقاء بعد فراق طوبل .. بل إن المتعة الدائمة تبعث على الانزعاج والضيق لأن ما يسرك الآن قد يثير الشمئزاز بعد طول الاستمتاع به (٧٥) . فما كل نوع واحد من الطعام يومياً مهما كان للديدا يندو إلى النفور منه في النهاية .. فلا يجب أن نطلب المتعة الدائمة والاحمق هو الذي يجري وراء السرور المستمر بالزهد في الحياة الدنيا .. إن حياتنا تستحق أن نعيشها في سرور بقدر ما نستطيع .. وعلى الفرد أن يتناول المزيد حتى ولو استله من الآخرين .. لأن الفرد يعيش مرة واحدة ولا يعود أبداً ..

(٧٤) نفس الرجع السابق .

(٧٥)

وهي تبعد بحوالى سبعة وعشرين ميلاً عن مدينة باتنا Patna في شمال ولاية بيهار Bihar وكان أبوه سدهارثا Siddhartha زعيم قبيلة جناثريكاس Jnatrikas الكشاثيرية وأمه تريشالا Trisala ابنة حاكم فيداتها Videha وشقيقه ليشافا Cetaka زعيم قبيلة شتاكا Lichavi الكشاثيرية نشب في أسرة حاكمة كشاثيرية لا ترباح إلى البراهمة وتؤمن بالعقيدة الجينية وتزوج ياشودا Yasoda التي أنجب منها طفلة سماها آنوجا Anojja وظل يعيش هو وأسرته مع والديه إلى أن وافتها المنية وتولى أخيه الأكبر نانديفارداانا Nandivardhana رعاية الفصيلة . فاستأنذ منه في هجرة الحياة ليعيش عيشة الناسك في الغابة على دين الجينية وكان في ذلك الوقت يقترب من سن الثلاثين ، واخذ يتجلو من مكان لآخر يستجدى طعامه وخلع جميع ملasse ما عدا رداء واحدا يستر العورة وبعد ثلاثة عشر شهراً من المجاهدة والتلذيب خلع الرداء الأخير فظل عاري تماماً طوال حياته ولكن بعد ست سنوات من الجهاد اختلف مع جوشالا Gosala الذي رأى أن العرى بدعة دخيلة على تعاليم بارشفاناتا وتمسك بالرداءapis وكون نحلة جينية جديدة عرفت باسم اجيفاكاس Ajivakas (٧٧) وفي نهاية فترة الجهاد التي استمرت ما يقرب من اثنى عشر عاماً وصل فارذاماانا إلى مرتبة الصراف بكل شيء وتخلص من قيود الأرض وعلم مريديه الواحد عشر العقيدة الجينية وعمل على تكوين جماعات تنشر الدعوة الجينية التف حولها الكثيرون بتأييد وتشجيع من الحكام حتى توفى في قرية بافا Pava الصغيرة القرية من ماجاذاهالا Magadaha ماصمة راجاجرهاها حوالى ٥٢٧ ق. م Rajagraha

تتجاوب معها العقول الهندية .. فظهرت حركتان دينيتان انبعثتا من الفكر الحر وناهضتا القيم الفيدية ورجال الدين الحر البراهمة بتأييد من الحكام الاحرار من الكشاثيريا ولكنهما تمسكتا في الوقت نفسه بالقيم الروحية بصورة أو بأخرى ، وهما الجينية والبوذية ..

اما عن الجينية فهي تنسب إلى لفظ « جينا » Jaina بمعنى المنتصر الذى قهر شهواته واصبح « تيراثانكارا » Tirthankara أي الصانع لطريق عبور النهر ويحقق له أن يكون أاما يرشد الناس إلى التعاليم الجينية ، ذلك أن الدهر عند الجينية مكون من دورات زمنية تبدأ وتنتهي في فترات غير محددة ونحن نعيش في دورة زمنية ظهر فيها أربعة وعشرون جينا في أوقات كان الناس في أشد الحاجة إلى ارشادات تعاليمهم ولبيسروا لهم طريق الخلاص .. وكان ريشابها Rishabha من أوائل الجينيا وأول من نادى بتجنب العنف .. وظهر منذ أكثر من مائة ألف عام وتواتى من بعده أئمة الجينا وكان من بين من اشتهر منهم الجينا الثالث والعشرون العابر بارشفاناتا Parsvanatha الذي عاش فيما بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد .. أما عن الجينا الأخير العابر الرابع والعشرين فاسمها فارذاماانا Vardhamana وأشتهر بلقب ماهافيرا Maha Vira أي البطل الروحي العظيم .. ولد حوالي عام ٥٩٩ ق. م بعد موت بارشفاناتا بحوالى مائتين وخمسين عاماً وقبل مولد بوذا بما يقرب من جيل أو يزيد قليلاً (٧٦) في بلدة كوندا جراما بالقرب من مدينة فاشالي Kundagrama (حالياً مدينة بشاره) Basrah Vaisali

Chakravarthy, A. : The Jaina Philosophy, (History of Ph. Eastern & Western) (٧٦)
op. cit.

Zimmer, H. : op. cit. (٧٧)

التي تحاكي البوذية وكل ذلك لأن الكهانة الجينية كانت تغار من اندفاع الناس للالتفاف حول البوذية .. ولكن الذي لا شك فيه أن ماهافيرا وبوذا كانوا متعارضين وأن شهرة بوذا طفت على شهرة ماهافيرا .. وأن تعاليم بوذا اكتسحت تعاليم ماهافيرا .. وأن لم يهتم بوذا بتأسيس كهانة بوذية تحافظ على بناء عقيدته في الهند لذلك انتشرت في خارج الهند أى في بلدان شرق آسيا وجنوبها الشرقي .. بينما استطاعت كهانة الجينية تدعيم عقائدھا في الهند من طريق الأساطير الشعبية والإضافات والتغيير والتبدل في تعاليم ماهافيرا التي أخذت تتناقل شفافها بعد أن ثبتت في المجتمع عام عقب وفاته وقسمت أشعاره إلى أنهى عشر جزءاً ولم تدون إلا في القرن الخامس الميلادي باللغة البراكريتية الشعبية (٧٨) .

★ ★ *

إن المقيدة الجينية لا تؤمن بغير الإنسان ولا مكان لاله فيها .. فالكون يتكون من مقولتين أساسيتين وجدتا منذ الأزل وخالدين إلى الأبد .. لم تخلقا ولن تفنى .. توجدان متلازمتين لا تفترقان .. هما الروح جيفا Jiva واللاروح أجيفا Ajiva تربط بينهما الكارما ، وخلاص الإنسان من آلام الحياة وتولى الولادات لا ينميان إلا بالقضاء على الكارما حتى تتمكن الروح من أن تخلص من المادة ولا تعود إلى الحياة وتصل إلى مرتبة من الكمال يجعله لها .. فالإنسان يمكنه أن يصير لها إلا أنه لا يوجد له لم يكن -الإنسان - فليست هناك هوة بين الإنسان والإله ولذلك رفضت الجينية الآلهة الفيدية المتعالية على الإنسان ولم تعارض في نفس الوقت الاتجاهات التسعيية التي ترى إمكانية تحول الإنسان إلى الله ، إلا أنها لم تقبل أن يتم هذا التحول عن طريق تجسد الإله في بشر وإنما يتم عن طريق المجاهدة والمعرفة الحقة التي تخلص الروح من أفعال الكارما التي تربطها بال المادة

فاصبح جينا الرابع والعشرين الذي تخلص من الكارما نهائياً ولن يعود إلى الحياة وأصبح مع الأرواح التي على قمة الكون (٧٨) .

اما التعاليم الجينية فترجمتها الأساطير الى أبعد المصور في القدم لتشير الى اسبابيتها على تعاليم رج - فيما يشهد على اصالتها الهندية التي لم تتأثر بالآرية لأنها تبعد في القدم بحوالي مائة ألف عام .. وتحيط هذه الأساطير أيضاً بارشادانا الجينا العابر الثالث والعشرين - الذي ترجع وجسده الى عصر الفزو الآخر - بهالة من القدسية تمجده التعاليم الجينية وتنبه الى أن تعاليم اليوباشاد ليست أسبق منها وإن مؤسسي المقيدة الجينية على مر العصور هم من قادة السكان الأصليين الذين حافظوا على اصالة جذورهم الهندية وإن ماهافيرا الذي أ瘋ي المقيدة الجينية سعة الانتشار والشهرة ما هو إلا مجدد لهذه العقيدة وليس مبتداها وباعتها بعد طول الرقاد الذي فرضه رجال الدين من البراهمة على غير العقادل المقيدة والبرهمانية وإن كانت الحرية الفكرية هي التي مكنت ماهافيرا من أن ينشر الجينية فأن عمله على تكوين كهانة جينية لتثبت الدعوة الى الجينية في كل مكان أدى الى ظمس شخصيته الفردية وأدمج انكاره الدينية في نطاق التفكير الديني الجماعي الذي عرف عن التفكير المقيد حتى يضفي على الجينية حالة من التقديم والقدسية تمكنها من مواجهة الاديان المنافسة ..

وأحسب أن الأساطير الجينية لم تهتم فقط بتفاصيل تعاليمها إلى اقدم المصور لتطبيها جواً من القدم يدعو إلى التعلق بها وإنما حرصت كذلك على أن تحيط حياة أئتها بكثير من الكرامات والمعجزات واتخذت من حياة بوذا نموذجاً مع التنوية بأن ماهافيرا ولد قبل بوذا بحوالي جيل وإن مردبه هم الذين عاصروا بوذا حتى توهم الناس أن بوذا هو الذي يحاكي ماهافيرا وليس الجينية هي

ثانياً : المعرفة الصحيحة :

ان المعرفة يمكن أن يتوصل اليها عن طريق غير مباشر : عن طريق الحس الذى يقف عند المعرفة الحسية او عن طريق التراث الدينى الذى لا يخلو من خرافات وادعاءات تحالف الحقيقة .. وهنالك معرفة مباشرة بالبصرة او بالحدس الذى يستشف أعمق الحقيقة بوعي روحي .. الا ان هذا الوهم الروحى لا يستكمل معرفته بكل شيء الا اذا تحرر من قيود الكارما لأن الكارما نشيع البلاهة في الفكر وتعوق تبصر الحقيقة وتدعى الى سيطرة الشهوة التي تحث على طلب لذة رضمة غشاؤة على البصيرة تحول دون ادراك المعرفة الصحيحة ..

ان المعرفة الصحيحة تقوم على أن الكون مكون من جسميات حية متشابهة في متنهي الصفر ولا نهاية العدد موجودة في الأرض والبحر والهواء والنار ، وجدت منذ الأزل وباقية للأبد تدخل في تشكيلات مختلفة تكون سنتي الكائنات من إنسانية وحيوانية ونباتية تموت وتولد في سلسلة من الحيوانات المستمرة خلال دورات من الدهر البدية بغیر بدایه ولا نهاية ، تعود كلما انتهت من الأزل الى الأزل .. وهذه الجسميات الحية مكونة من جيفا اي المبدأ الحيوي او الروح ومن آجيفا اي المادة وهذا مرتبطان متلازمان يجمع بينهما الكارما اي الفعل ولا يمكن فصل جيفا عن آجيفا الا في حالة التخلص من الكارما والقضاء على فعلها وعندئذ تحرر جيفا من قيد آجيفا وترتفع الى عالم الآلهة بعد ان تم بمراحل من التناست على كائنات حية عديدة تجاهد في ولادة جديدة من أجل القضاء على الكارما تدريجيا حتى يبلی ويصبح الإنسان جيفا خالصة فلا يعود ليقاسم ويلاز الحياة من جديد (٨٢) .

والارض والحياة الدنيا وتجعلها صافية من كل الشوائب المادية ونعيش سعيدة في عالم الآلهة (٧٩) .

وطريق خلاص الروح من المادة يستلزم اتباع: اولاً العقيدة الصحيحة .. وثانياً: السلوك الصحيح .. وثالثاً: اتباعه . لا يجدى اتباع واحدة منها دون الأخرى ، لأن كل منها ضروري ويجب اتباعها جميعا .. وما أشبه الإنسان في هذه الحياة بالمربيض مثلاً الذي يجب اولاً ان يثق في الطبيب المعالج .. ويعرف ثانياً طبيعة الدواء الذي يوصف له وان يتناول ثالثاً الدواء حسب التعليمات حتى يتم له الشفاء (٨٠) .

أولاً : العقيدة الصحيحة :

ان العقيدة الصحيحة هي العقيدة الجينية، الا ان الإيمان بها يجب الا يكون إيماناً أعمى انما يجب ان يستند على الفهم .. فلا يجوز الإيمان بالعقائد الخرافية كالاستحمام في الانهار والطواف حول الاشجار على اعتبار أنها مقدسة .. ولا ينفي الإيمان بأن اداء الشعائر وتقريب القرابين للآلهة يخلصنا من الامراض ويسمنا طول العمر .. ويجب ان نميز بين الأدعية من رجال الدين ولا نستمع الا لتعاليم المستنيرين منهم .. بينما العقيدة الجينية تؤمن بأن الحياة أساسها الشقاء والالم وان على الإنسان ان يتخلص من هذه الحياة ولا يعود إليها حتى تكون بعيداً عن آلامها ولا يمكن تحقيق ذلك مالم يحيط بالمعرفة الصحيحة احاطة كاملة لأن الوقوف عند الإيمان بالعقيدة الصحيحة لا يكفى ما لم تدعم هذه العقيدة بنور المعرفة الصحيحة التي يمكن ان يكتسبها على يد معلم قادر متمكن واسع الاطلاع على التعاليم الجينية (٨١) .

Hiriyanna, M. : op. cit.

(٧٩)

Chakravarthy, A. : op. cit.

(٨٠)

Guerinot, A. : La Religion Djaina, Geuthner, Paris 1926.

(٨١)

Jacobi, H. : Jaina Sutras, Oxford, 1885.

(٨٢)

كل شيء قيمته ويسود الخراب والانحطاط . .
وما ان يصل الكون الى هذه المرحلة حتى يتدا
في المرحلة الثانية الى تطور خلالها القيم
والحقائق والفضائل تدريجيا نحو التقدّم
والرقى . . وكل مرحلة تنقسم الى ستة
عصور متساوية، كل عصر يتميز بخصائص لا
تتغير الى الابد وتختلف فيه السعادة والشقاء
بنسب متفاوتة وتبدأ بالمرحلة التي تستهل
بالسعادة المطلقة وتنتهي بالشقاء المطلق : -

- ١ - عصر السعادة المطلقة العظيم .
- ٢ - عصر السعادة .
- ٣ - عصر السعادة المشوبة ببعض الشقاء .
- ٤ - عصر الشقاء المشوب ببعض السعادة .
- ٥ - عصر الشقاء الذي نحياه حاليا .
- ٦ - عصر الشقاء المطلق (٨٤) .

وما دمنا قد عرفنا ان المقيدة السليمة في
ترك الخرافات والاباطيل الدينية وما تدعوه
اليه من شعائر وقرابين وعبادة الالهة وما
تسمح به من تفرقة بين الافراد حسب
الطوائف . . وعرفنا ان الروح اسيرة المادة
вшواغل المادة وما تأيه الكارما من افعال وان
الكارما هي التي تربطها بالحياة الارضية التي
يعمها الشقاء وأن كمال الانسان لا يتحقق الا
بخلاص الروح كلية من شواغل المادة وافعال
الكارما ولا يمكن ان يتم ذلك حتى لو عرفنا
العقيدة الصحيحة وتوصلنا الى المعرفة
الصحيحة ما لم نتبع هدى السلوك الصحيح
الذى يمكنه ان يخلص الروح من براثن المادة
التي تستخدم الكارما في توثيق رباط الفرد
بالحياة الارضية . . وتتفاوت حالات سيطرة
الكارما على الروح وتدرج كالآتي :

وتحتفل مستويات الكائنات الحية حسب
عدد حواسها . . فالنباتات والجسيمات
العضوية المنتشرة في الماء والهواء ليس لها غير
حساسته اللمس بينما الدودة الأرضية لها
حساستها اللمس والدوافع والحسارات لها ثلاث
حواس اللمس والدوف والشم بينما الحيوانات
من ذوات الخمس حواس في حين ان الانسان
يختار عنها جميعا بالعقل علاوة على الحواس
الخمس . .

ورغم انه لا يوجد جها منفصل عن آجيفا
في هذا العالم . . فان آجيفا هي المادة من دون
حياة واحساس وفکر او روح وتنكون من
ذرات مشابهة تختلف من حيث المنساشر
والكيفيات والخواص وتوجد في مكان تحدث
فيه الحركة او في فراغ حيث الحركة غير
ممكنة وتحدث كيفيتها في زمان ما . . والزمن
غير محدود ويكون من دورات ما تقاد تنتهي
دورة حتى تبدأ أخرى هكذا على التوالي بلا
بداية او نهاية . . فمقومات المقوله آجيفا هي
المادة والمكان والزمان والحركة والسكنون ،
اما عن المادة التي تدرك بالحواس فلها كيفيات
واحوال حسية . . ولكن المكان الذي يحدد
امتداد المادة او التماشها حسب الابعاد
الطبيعية لكل جسم لا يمكن ان تدركه الحواس
اذ ليس له ملمس او مذائق او رائحة او صوت
ولا يرى ولا يشعر به . . ومع ذلك فان الاشياء
تتکيف حسب حجم المكان ولا يوجد شيء دون
مكان يحدد مساحته وحجمه او تحدث فيه
حركاته وسكناته او يعتريه تغير وتحول (٨٣)
في اي لحظة زمنية تتشكل فيها احواله
ومظاهره المختلفة . . ان الزمن مكون من
لحظات زمنية وان كان لا بداية له او نهاية الا
انه يتكون من دورات متتالية بلا انقطاع كل
دورة بمرحلتين : مرحلة تضمحل فيها القيم
والحقائق والفضائل تدريجيا الى ان يعم الكون
الفساد والغوض والضياع والاضطراب ويفقد

يتمشى مع الأهمسا .. فإذا كان قول الصدق يعرض الفير للاذى فيجب ان تمنع عن قوله . وإذا جلب السرور والخير فيجب قوله .

٣ - عدم السرقة : وهو يتطلب عدم اخذ ممتلكات الفير دون رضاه سواء اكان هذا الاخذ في المواريث والماكيل والقسايس في المجالات التجارية او في الاستيلاء على عمار الفير وأموالهم بأساليب غير شريفة وبدون وجه حق او استخدام ممتلكات الفير دون اذن أصحابها .

٤ - مبدأ براهما شاريا Brahmacharya وهو يقوم أساسا على تجنب الانفاس في الملذات الجنسية وغيرها من اللذات الحسية .

٥ - اللاطمع الذي يحرص على تجنب اخذ اي شيء لا يحتاج اليه ولديه منه ما يكفيه وطلب المزيد منه سواء في المأكل والشرب والملابس واقتناء الاشياء يجعله اسير نزعات من الجشع الشره (٨٦) .

★ ★ *

وإذا كان ماهافيرا قد طالب كل "جيني" بأن يتبع Heidi هذه المبادئ الخمسة في سلوكه الا أنه لم يطالب باتباعها باسلوب حرف شكلي الرامي دون مراعاة ظروف كل فرد .. فالوارع مثلا لا يمكنه اتباع الأهمسا بالنسبة للنبارات التي يقلعها ويقطعنها ويدرسها ولكنه يستطيع ان يتبعها بالنسبة لغيرها من الكائنات الحية وكذلك رب البيت لا يستطيع ان يتمتنع عن علاقاته الجنسية الا انه يجب ان يقتصرها على زوجته وذلك بخلاف المزيد والراهد .. فانه يجب عليهما الامتناع قطعا عن مثل هذه العلاقات .. وإذا سمح لرب البيت بأن يقتني شيئا فانه محرم على الراهد ان يتبع اي شيء من الحطى

١ - حالة تسسيطر فيها الكارما سيطرة تامة على الروح وتخضعها اخلاقاً كاملاً للشهوات .

٢ - حالة تسسيطر فيها الكارما سيطرة جزئية على الروح وتخضعها اخلاقاً جزئياً للشهوات .

٣ - حالة تسسيطر فيها الروح سيطرة تامة على الكارما وتتحرر جزئياً من سيطرة الشهوات .

٤ - حالة تقضي فيها الروح على الكارما وتتحرر كلياً من سيطرة الشهوه .

٥ - حالة نهاية تخلص فيها الروح من اسر المادة (٨٥) .

وأول طريق السلوك الصحيح للقضاء على الكارما تمهدأ لتحرير الروح من المادة يبدأ بالتحرر من التبود الأرضية من عائلية واجتماعية وهجرة الناس واعتزال الحياة لتنصرف عن توازن المادة وتجاهد وتعصب الجسد وشحذ الطعام وتناول المقيدة الصحيحة وتعمق في فهم المعرفة الصحيحة .. والسلوك الصحيح يستند الى خمسة مبادئ يجب أن يتبعها كل "جيني" سواء اكان رب بيته أم موريدا :

١ - مبدأ الأهمسا Ahmsa اي الامنف الذي يتبعه ابناء اي كائن حي بالفعل او القول او الفكر سواء بطريق مباشر او غير مباشر .. والاهمسا ليست موقفا سلبيا يقف ضد الابتعاد عن كل ما يضر الفير وإنما هي موقف ايجابي كذلك لأنها تؤدي الى عمل الخير مادام عدم تقدير هذا الخير يؤذى الفير .

٢ - الصدق : اي قول الصدق الذي

في مختلف المذاهب الهندو كية ولعبت الأهمية «اللاعبون» دوراً هاماً في جهاد غاندي السياسي .

اما البوذية الاكثر خطأ من الجينية والتي
لقيت ترحيبا كبيرا من الشعب الهندي فلم
تدع عراة في القدم ولم تهتم بتكوين كهانة
لتحافظ على طول بناء الديانة البوذية في الهند
انما ارسلت المبشرين بتعاليمها لا الى داخل
الهند وإنما الى حارجها كذلك ، فذاع صيتها
في كل مكان واقبل عليها الخاصة وال العامة
وحاولت ان تمتصها الديانات المحلية في بلدان
شرق آسيا وجنوب شرقها الا انه كان لها
السيطرة على الدوام وامتصت هي جميع
الاديان المطحية .

ولد سد ذارنا Sidhartha مؤسس البوذية في منتصف القرن السادس قبل الميلاد اي حوالي عام ५६३ ق.م في اسرة جوتاما كانت تقيم على سفوح جبال الهيمالايا بالقرب من مدينة كايلافاستو Kapilavastu عاصمة ولاية ماجادها Magadha ويجرى في سهولها نهر روهيني Rokiri وتبعد شمالاً بما يقرب من مائة وثلاثين ميلاً عن مدينة بنارس .. كان والده الراجا سودهودانا Suddhodhana كشاترييا يرأس قبيلة ساكا ويحكم البلاد ووالدته مايا ابنة زعيم قبيلة «كولي» Koli التي كانت تعيش على الضفة الأخرى من نهر روهيني .. فشب سد ذارنا في عرف القصور وعزها (८८) كما تربى تربية كشاترية عسكرية .. تم تزوج يزودارا Yasodhara وانجب منها طفلاً باسم راهولا Rakala ومع ذلك فما كاد يقترب من سن الثلاثين حتى انتابه مسول دفعته للانصراف عن متع القصور

والملابس والأدوات او من المقارن والمآل - بل يجب ان يقطع كل علاقاته الاسرية ويصبح العالم كله اسرته وكل الكائنات الحية محل عطفه وحنانه ، كما ان كل فرد يستطيع ان يكون جينيا دون نظر الى اي نوع من التفرقة سواء اكان من الرجال او من النساء .. وكل جيني يمكنه ان يبقى رب البيت او يعتزل الحياة ويصبح زاهدا ما دام يتبع هدوى المبادىء السلوكية الخمسة ويتصدى بالمعرفة والدواء والطعام والراحة والاستضافة على كل جيني يطرق بابه او يمكنه تحمل عذاب الجهاد الجسدي والرياضات النفسية وتطهير روحه من ادران المادة .. ويمر المريد التارك للحياة الدنيا بخمس مراحل :

١ - مرحلة الراهد الناسك الذي يصرف كل اهتماماته نحو اتباع طريق الخلاص بكل صدق وعزيمة فويبة واحلاص لا يفتر حتى يصبح سلوكه نموذجا للناس يحتذوه دون ان يقوم بدور المعلم للعقيدة الجينية .

٢ - مرحلة المعلم الذي يجيد فهم التعلم الجيني ويعمل على تلقينها للغير بتمكن وكفاية.

٣ - مرحلة الداعي الذي يبشر بالدعوة الجينية ويوجه الجينيين ويرشدهم الى كيفية اداء السلوك الصحيح .

٤ - مرحلة الكامل الذي نجح في القضاء على الكارما .

٥ - مرحلة الجنـا الـامـام الـذـى تخلـص مـن
ادـانـاـ المـادـة تـخلـصـاـ نـهـائـاـ وـيـعـيشـ فـعـالـمـ الـاهـةـ
دون عـودـةـ إـلـىـ الـحـيـاةـ الـأـرـضـيـةـ (٨٧) .

وإذا لم تستطع الجينية أن تفرى الكثرين من عامة الهندو فانها تمكنت من البقاء في الهند الى وقتنا الحاضر واترت اسسها الفلسفية

Guerinot, A. : op. cit.

(۸۷)

Asvagosha Bodhisattva : The Life of Buddha (Sacred Books of the East)
Colonial Press, New York, 1900.

(۸۸)

غارقا في بحر من التأمل على الا يقوم الا بعد أن يصل الى الحقيقة او يهلك دونها مهما ثقلبت عليه الاجواء وراودته الانفعالات والرغبات . ومهمما قاسي من آلام وطال عليه الرمن فان الهاك اهون من ان تعيش حائرًا بجهل الحقيقة .. ولكن لم تك تمضي ستة ايام وهو على هذه الحالة حتى استئنار سذارتا في اليوم السابع وعرف الحقيقة واصبح بوذا اي «المستني» الذي تكشف له سر الالم في الحياة واهتدى الى كيفية الخلاص منه (٩١) وبلوغ حالة من الكمال تنتهي فيها الآلام والمرات .

ادرك بوذا ان طريق الخلاص يقوم على حقائق اربع هي :

١ - ان الحياة أساسها الالم .. وانها سلسلة لا تنتهي من المخاوف والعذاب .. لا يمكن التخلص منها الا بالبحث عن علة هذا الالم ومعرفة أسبابه الحقيقة .

ب - ان علة هذا الالم هو الجهل والشهوة .. ذلك الجهل الذي يدفعنا الى حب الحياة والتعلق بمعتها .. وتلك الشهوة التي تمعن في طلب المزيد من الذات .. وكل هذا يسوق الى اقتراف الخطايا والآثام طمعا في ارضاء نزوات واهواء لا تعرف الرضا او الاصباع ..

ج - ولذلك يجب ازالة ذلك الجهل واستئصال تلك الشهوة لكي تخلص مما يسببانه من آلام .. ان المعرفة الحقة فيها قضاء على الجهل والقضاء على الجهل فيه استئصال لرغبة حب الحياة واستئصال رغبة حب الحياة فيه الخلاص من الالم .. والخلاص من الالم فيه بلوغ الترفانى حيث

فتتجنب مشاركة الشباب في اللهو واحد يطيل في التفكير والتأمل .. فإذا به ينفر من رؤية الشيخ المهرم العاجز .. والمريض المتهاك الذى انهكته العجل .. وجنة الميت الذى فقد الروح ولم بعد يطبق هذه الحياة التي سبب مثل تلك الآلام للناس .. فظن جريا على الاعتقاد السائد في ذلك الوقت ان المثل الأعلى للانسان يكون في انتزال الحياة والنسك والتأمل و معاناة المجاهدات النفسية والرياضات النفسية املا في التحرر من معاناة هذه الآلام ومعرفة الحقيقة المطلقة التي يحبه كل تلك الآلام (٨٩) .. ولم يتورع عن أن يتخلى عن حياة القصور رغم معارضته والده وأغراهه بالتنازل له عن العرش اذا ما انصرف عن حياة الزهد .. فلم يشنه ذلك عن الهجرة الى كهوف الغابة يوم ولادة ابنه راهولا حتى لا يصره تعلقه بهذا الابن عن الهدف الذي ي يريد .. ورضي ان يعيش متنقلًا بين كهوف الجبال ومغارات الاشجار متحملًا شفظ العيش يستجدى طعامه ويسعد جسده اشد العذاب .. يناقش كل من يقابله من الزهاد طمعا في ان يعرف منهم حقيقة الحياة وسبب ما يقادسه الانسان فيها من آلام .. فلم توصله العزلة والزهد والتقصيف والتأمل والمناقشة الى بغيته .. ولم يستطيع معلومه من الزهاد على ما بلغوه من معرفة وشفافية ان يضمونه في الطريق الذي يحقق السعادة (٩٠) .

فلا نعجب اذن اذا ما ضاق سذارتا بحياة الزهد وتعاليم الزهاد بعد ان ادرك ان اساليب النساك وما يتوصلون اليه من معارف لا تمكنه من كشف الحقيقة المطلقة .. وبعد ان امضى نحو سنتين من الزهد والتتجوال والمحوار اي حوالي عام ٥٢٨ ق.م صمم سذارتا على الجلوس تحت شجرة بين جلسة القرفصاء

| | | | |
|-----------------|---|--|------|
| Arnold, Sir E. | : | The Light of Asia (The Wisdom of India) op. cit. | (٨٩) |
| Lillie, A. | : | The Popular Life of Buddha, Kegan Paul & Trench London, 1883. | (٩٠) |
| Jennings, J. G. | : | The Vedantic Buddhism of the Buddha, Oxford 1947. | (٩١) |

٦ - المجهد الصالح هو ذلك المجهد الذي لا يابه باداء اى نوع من الطقوس والشعائر .. لا يهتم بطلب رحمة الله او مغونة رب - يعتمد على افعاله فقط لتحقيق مأربه (٩٤) وينصرف كلية نحو تطهير الفكر وتصفية الدهن من الشر واساغة الخير في طياته ..

٧ - الوعي السليم : لا يتحقق الا اذا تم تطهير الانسان للسانه وافعاله وفكرة وتحكم في افعالاته الجامحة ومشاعره المتهبة ورغباته الملحقة وأفكاره الشريرة بفضل ما اكتسبه من خصال خلقية فاضلة ومن قوى ذهنية نبيلة مهدت لصفاء عقله يقدر على تنقية المفيدة البوذية من الشكوك والريب وتفوية الایمان بالحقائق البوذية الأربع ..

٨ - التأمل الصحيح : ان قوة الایمان تتبع للدهن من الصفاء ما يمكنه من التأمل الهاديء الواضح في الحقيقة المطلقة .. دون ان تعوقه رغبة او تشوبه شهوة .. تيسر له سبل اتباع هدى الطريق ذات الشماني شعب حتى يقطع صلته بالوجود ولا يولد من جديد على الاطلاق لا في الأرض او في السماء ويصل الى النرفانا حيث الهدوء المطلق والسكنينة التامة والراحة الابدية .. وحيث تبلى الشهوات وتندفع الرغبات وتتلخص الحواس ونصف المشاعر وتستقر الافكار .. فلا يوجد هناك افراح او اتراح انما يوجد سلام دائم ورضاء متواصل لا تعتريه سواب الشقاء والحزن والخوف والشك والقلق (٩٥) ..

ولكن طريق النرفانا طريق طويل شاق يحتاج لآلاف السنين يتعدد خلالها الفرد على

الراحة الحقة التي لا تسؤى عليها الآلام والمسرات ولا تعرف الولادة والموت لا في الأرض ولا في السماء ..

د - ولا يمكن استعمال رفبة الحياة إلا بعد اتباع هدى الطريق ذات الشماني شعب وهي : (٩٦)

١) العقيدة الصادقة التي تؤمن بطريق الخلاص البوذى طواعية دون الزام ..

٢) السلوك الفاضل الذي ينطوى على النبة الصادفة والطويلة الصافية التي لا ت肯 للغير اي شر او حقد او حسد وتتمنى الخير للجميع وتعمل لخير الغير على الدوام ..

٣) القول الطيب الذي يتجنب الكلب والعنق والرياء والنميمة والغيبة .. ويبعد عن لغو الحديث .. ولا يسب احداً بالفاظ جارحة ناوية .. او يخدش كرامته .. او يشنع بسمعته .. ويتوخى دائماً قول الصدق (٩٣) ..

٤) الفعل الحسن .. فلا يأتي منكر الأفعال ولا يتعدى على حقوق الناس .. لا يقتل اي كائن حي .. لا يسرق .. لا يبغش .. لا يتعاطى الخمور والمخدرات .. لا يزني .. بل يتبع هدى الفضائل الخلقية حتى تكسبه خصالاً حميدة تهيء له حياة سوية ..

٥ - الحياة السوية هي الحياة الوسط التي لا تتمادي في طلب الملاحم الحسية ولا تفالى في تعديب الجسد ..

Muller, F. M. : The Dhampada. (Sacred Books of the East) Oxford, 1924. (٩٦)

Thomas, E. J. : Early Buddhist Scriptures, Kegan Paul and Trench & Trubner London, 1935. (٩٦)

Ling Yutang : The Dhammapada (Wisdom of the East) op. cit. (٩٦)

Roy Davids, T. W. : Buddhism, (Non Christian Religious Systems) London, 1903. (٩٥)

الذى يركب البعض .. وبذلك لا يوجد ما يدعو للعودة الى الأرض او الى السماء ويخرج البوذى من نطاق الالم والسرور ويصبح فوق الاحزان والأفراح طليقاً من قيد الولادات حيث الهدوء الشام في الخبر المطلق والحكمة الأبدية .

وما أن توصل سدزارتا الى الاستشارة وأصبح بوذا حتى ادرك ان حياته الحالية هي الحلقة الأخيرة في سلسلة الولادات الطويلة وانه لم يعد الى الحياة مرة أخرى الا ليتحقق النرفاانا .. ولكنه ما كاد يتوصلا الى هذه المعرفة حتى تردد في ما اذا كان عليه ان يحتفظ لنفسه بما توصل اليه من حقائق او ان يخفيها عن عامة الهندو خشية الا يستجيب له أحد او لا يجد من يقدر ان يشاركه في فهم تعاليمه الجديدة .. الا ان ما يفهم الحياة من بوس وشقاء حت يوذا على ان يعلن تعاليمه رغبة منه في انقاد اخوانه في الانسانية من آلام العودة الى الحياة بعد كل موت .. وبذا ينشر يوذا دعوه بين مربيه أثناء سنوات تنسكه وبين من سبق ان ناقشهم من الزهاد النساء تجواله في الفياضات والجبال وبين حكام البلاد التي كان ينتقل في ارجائها فاستطاع ان يقنع كبار الزهاد ومربيهم وحكام المدن ورعاياهم ثم توجه الى مسقط رأسه وادخل آباء وآخاه وزوجته وابنه وبقية افراد أسرته وأصدقائه في المقيدة البوذية .. وظل يتنقل من بلد الى بلد ويكون الجماعات هنا وهناك ويشرف على النساء الاستراحات في الاماكن النائية والتي يتبرع بقيمتها الحكام والاثرياء من أجل ان يقيم فيها البوذيون منصراً فين الى بلوغ النرفاانا ، ولقد بلفت تنقلاته حوالي خمس وأربعين رحلة وضع خلالها شريعة كاملة للجماعات البوذية حتى وافته المنية حوالي عام 483 ق.م (٩٧) بعد ان لاقت دعوه نجاحاً منقطع النظير في تاريخ الدعوات الهندية على الاطلاق ..

مختلف الكائنات الحية .. ويتناقل فيما بين الأرض والسماء حتى يتخلص نهائياً مما يربطه بالحياة من النواقص العشر وهي :

١ - الوهم ٢ - الشك ٣ - العمل من أجل القوت ٤ - الشهوة الجنسية ٥ - الكراهية والحدق ٦ - حب الحياة الأرضية ٧ - الرغبة في الحياة السماوية ٨ - الكبراء ٩ - الفرور ١٠ - الجهل .

ويمكن للبوذى أن يتخلص من هذه النواقص على مراحل أربع هي :

١ - المرحلة الاولى تبدأ بهجرة الحياة وقطع الصلات بالمجتمع والامتناع عن العلاقات الجنسية حتى يمكن التخلص من أوهام الديانات الشائعة وما تدعوه اليه من شعائر وقرابين وما قد تثيره من شك في تعاليم يوذا .. وحتى يتمتنع البوذى من اداء اي عمل يتكتسب منه ويكتفي باستجداء طعامه اليومي او يقتني اي نوع من الممتلكات ..

ب - وفي المرحلة الثانية يجاهد البوذى من أجل قهر شهوته الأرضية واضعاف رغباته في التعلق بالحياة الأرضية وتصفية اقواله وافعاله وافكاره (٩٦) من الاحقاد والضغائن واتباع هدى الطريق المثمن حتى لا يعود الى الحياة الأرضية الا مرة واحدة ..

ج - وفي المرحلة الثالثة يقضى البوذى قضاء نهائياً على مختلف الشهوات خصوصاً الشهوة الجنسية وكذلك على شتى التزعاج الشريرة وميول الانانية حتى تمتتنع هودته الى الأرض ويعيش في السماء .

د - وفي المرحلة الرابعة والأخيرة يتحرر البوذى من الرغبة في الحياة بالقرب من الآلهة ويخلص من عوائق الفرور وال الكبراء والجهل

٩٦ - عبد العزيز محمد الزكي : قصة يوذا . مؤسسة المطبوعات الحديثة - الاسكندرية ١٩٥٩ .

Horner, I. B. : The Book of the Discipline (Vinaya Pitaka) Luzac, London, 1949. (٩٧)

الكارما هي حلقة الاتصال بين حياة وحياة وتشكل نوع كل ولاده جديدة وان القضاء على هذه الحلقة يؤدي الى انقطاع الحياة والخلاص من آلامها (٩٨) .

لم يجد بوذا في الإنسان أدنى غير صفات مادية ترجع إلى العناصر الأربع من نراب وماء ونار وهواء .. وأنه يتكون من اعضاء الحواس الخمس .. وقوة التذكر .. والميول الفطرية من ذكاء وغباء أو غيره أو أنيابه أو من استقامة الإرادة وقوتها وانحراف العزيمة و خورها .. نم القوة العاقلة الوعائية ووظيفتها الفكر والتأمل .. أما عن الروح فليست إلا وهما باطلًا لا سند له من الواقع ومحاولة اثبات وجودها يو قمنا في جدل ونقاش يబلى الفكر ولا ينتهي إلى رأى وان ترك فكرتها تحوم حول العقل يعوق تحقيق الترفانا .. علاوة على أن الاعتقاد في الروح - سواء أكانت روح الفرد أو روح الله - يدمو إلى أداء الشعائر وتقريب القرابين طمعاً في تحقيق حياة في السماء في صحبة آلهة لا وجود لهم إلا في الخيال (٩٩) وإن الحياة في صحبة الآلهة أن وجدت لا تخرج عن كونها مجرد حياة ينطبق عليها مبدأ التنااسخ وتولي الموت والولادة ولا تخلو من آلام يقايسى الإنسان وبيلاتها ولا توقف سلسلة الولادات عند نهاية وبالتالي لا تؤدي إلى الترفانا ..

وجميع تعاليم بوذا جمعت وتللت عقب وفاته مباشرة مقسمة في ثلاثة كتب هي عباره عن مناقشات بوذا مع مريديه وعامة البوذيين : أولها : كتاب فينايا بيتاباكا Vimaya Pitaka وهو كتاب السلوك الذي ينظم حياة البوذيين داخل الجماعات البوذية في الاستراحات وخارجها ..

ويرجع هذا النجاح السريع إلى أنه كان يعيش أولًا في مصر من الحرية الفكرية مكتبه من أن يناقش البيانات المعاصرة له مناقشة حرّة دون أن يطعن فيها وخلص الجماهير من سيطرة رجال الدين سواء من البراهمنة أو الزهاد بالطريق الوسطى الذي لم يتشدد في التمسك بالزهد الصارم ولم يحرم الناس من بعض المتع الضرورية دون افراط أو تفريط كما أنه اهتم بانيا بنشر دعوته بين كبار الزهاد والحكام قبل أن ينشرها بين عامة الناس . ولما اقنع الزهاد ورجال الدين والحكام وسادة القوم لم يتعرض لumarضتهم ومقاومتهم بل لففي منهم كل عون ومساعدة مما دعا اتباع الزهاد ورعايا الحكام إلى الدخول أفواجاً في البوذية .. هذا علاوة على أن تعاليم بوذا التي لا تقبل نظام الطبقات وترفض إقامة أي نوع من التفرقة على أساس من الجنس والأسرة والطائفة ترى أن لا تقبل فضلاً لانسان على انسان إلا بالفعل لا بالحسب والنسب وان ما يبقى من الانسان هو افعاله فان الفرد لا يتميز على آخر إلا بمقدار ما يبذله من جهد من أجل تحقيق الترفانا .. وقد دعمت هذه التعاليم إلى شدة اقبال أفراد طبقة السودرا على البوذية .. ورغم أن هذه التعاليم رفضت كثيراً من العبييات كالارواح والآلهة والفت الشعائر والتعاونية والطلاسم والقرابين والسحر وكلها لها أثر كبير على عقول العامة فان ذلك لم يصد الجماهير منها لأن بوذا تمسك بالتنااسخ وأعتبره حقيقة بدھية لا تحتاج إلى دليل أو برهان لا يستطيع ان ينكرها والا تقوضت كل الاسس الفلسفية للديانة البوذية .. وما كان هناك طريق للخلاص الذي يقسم على تولي الولادات وعقيدة التنااسخ سوى عقيدة شعبية تستهوي عقول العامة فلم ينفروا من ديانة لم يعترف بوجود الله أو روح وترى أن ما ينناصر هو الكارما أي مجموعة أفعال كل فرد وان

(٩٨) انظر كتابنا عن : قصة بوذا

لها كذلك .. ولئن كان امعان الكارفاكية في المادية لم يجعل منها أرضاً خصبة لتكوين مذاهب جديدة فان الديانة الجينية - وإن اقتصر انتشارها على نطاق ضيق - قد ساهمت بنظرائها في الأهمس والجسيمات الدقيقة الحية وثنائية الوجود من روح ومادة التي لعبت دوراً هاماً في تكوين مذاهب هندوكتية متطرفة .. أما عن البوذية فان شخصية بوذا الفذة وأخلاقياته التمودجية ونجاحه الكبير في نشر دياناته واستنجابه الجماهير لها جعل الديانات الهندوكتية تهتم بآن تمتصه فاتخذت منه أحد تجسيدات الإله فشنو .. وبذلك أحدث اتجاهات التفكير الحر عند كارفاكا وماهافيريا وبودا رجة فكرية ودينية جعلت الديانات الفيدية تتضاد عن الآلهة الآرية ونسع المجال أمام الآلهة الهندية ورفعت ابطال الكشاتريين الذين يرمون إلى السكان الأصليين سواء كانوا مقاتلين أو زهاداً إلى مرتبة التجسد الالهي .. كما نركوا العنان للعبادات الشعبية لتنطلق واتخذت من النظريات الجينية دعامة لبناء مذاهب جديدة متطرفة ..

رغم ذلك فان رجال الدين لم يقفوا من الفكر الحر موقفاً سليماً .. فان اغفل الفكر الحر الآلهة ولم تسلم الجينية الا بوجوده الا رواح الفردية وأنكرها الكارفاكية والبوذية .. وإن تنكر الفكر الحر للكتب الفيدية والبرهامية واليوبانيشادية الا ان كل ذلك كان له رد فعل ديني وفكري بين المؤمنين بالهندوكتية جعل البراهمة ينكرن جدياً في كسب الأرض الدينية التي فقدتها الفيدية دون تنصب او اضطهاد خصوصاً بعد أن خف تأييد الحكماء والاترياء للاديان الجديدة .. فتعلم البراهمة الجدال والنقاش من الكارفاكين وإذا بالديانة الفتنوية تحمل من بوذا أحد تجسيدات المها المفضل فشنو وإذا بالمذاهب الهندوكتية تذهب

والثانية : ابهيدهاما بيتساكا Suttas Pitaka وهو كتاب العقائد الذي يعرض العقائد البوذية . وثالثها : ابهيدهاما بيتساكا Abhidhamma Pitaka وهو كتاب فلسفة العقائد وأهم اجزائه سفر دهاما بادا الذي يهتم بالاسس الفلسفية (١٠٠) ولقد عقد اجتماع نان بعد مرور قرن او يزيد على الاجتماع الأول في عيد الملك كالاشوكا لنصفية بعض الخلافات حول بعض التفصيات البوذية .. وكذلك عقد اجتماع ثالث في عهد الملك آشوكا الذي اعجب بتعاليم بوذا وجعل منها الدين الرسمي للدولة في القرن الثالث قبل الميلاد فانتشرت بين الهنود على مدى واسع واعتبر عهده المصر الذهبي للبوذية في الهند . وفي الاجتماع الثالث تحقق تعاليم بوذا من كل ما ادخل عليها لم اقام آشوكا كثيراً من الاعمدة الصخرية ونقتضى عليها منشورات دينية تضم اركان الدين البوذى الرئيسية ووضعت هذه الاعمدة في طول البلاد وعرضها حتى تكون تعاليم بوذا مائلاً أمام الجميع مصونة من البدع .. وتعتبر النصوص البوذية المنقوشة على الاعمدة الصخرية أول نصوص مدونة عرفها تاريخ الكتابات الهندية وبعدها دونت نصوص فيدية وبدأت الكتابة تعرف في الهند (١٠١) واهتم آشوكا كذلك بارسال البعثات التبشيرية للديانة البوذية خارج الهند: إلى سيلان وبورما وسيام وكمبوديا وجاوة وبالى وسموطرة والى كشمير والتبت والصين ومنغوليا وكوريا واليابان والى مصر وسوريا مما اتاح للبوذية ذيوعاً شاملاً ..

* * *

لا جدال في أن مبادئ الحرية الفكرية والتسامح الديني والاحسان بالمساواة بين الأفراد كانت من المبادئ الأساسية السائدة في القرن السادس قبل الميلاد وفي الأجيال التي تلته وكان لها أكبر الأثر في انتلاق الافتخار الكارفاكية والجينية والبوذية والأفكار المارضة

Thomas, E. J. : The History of Buddhist Thought, Kegan Paul, London 1933. (١٠٠)
Ward, C. H. S. : Outlines of Buddhism, Epworth, London, 1934. (١٠١)

صفات الله الواحد من الوجداية والدلوام واللانهائية والثبات والصمود في كل شيء من دون الثالوث اليوبانيشادي (١٠٢) وله عشرة تجسدات بشرية ذكر منها التجسد السابع في راما بطل الرامايانا الكشاري المقاتل النساجع الذي انتصر على الشياطين .. والتجسد الثامن في كريشنا حكيم الجيتا ومرشد أرجونا أحد ابطال الماهابارانا والذي نجا من التردد ودفعه إلى أداء الواجب العسكري .. والتجسد التاسع في بودا المستني الذي انتصر على الشهوة والجهل وحقق الترقى بالقضاء على الرغبات وبالعرفة والسلوك الفاضل .. أما التجسد العاشر والأخير فهو التجسد المنتظر الذي سيظهر في المستقبل لينقذ البشرية من الحشر والدمار (١٠٣) بينما وضفت الله « سيفا » المدمر فوق كل الآلهة واضافت إليه مختلف صفات الالوهية والوحديانية .. وإن قلداته الأساطير قلادة من الجحاجم واحتاطه بالأشباح والشياطين والأرواح الشريرة ولقت حوله التعابين ورمزت إليه بعضو الذكر وجعلت منه الراقص الأول والراهد المتأمل الذي أخرج الكون من تأملاته وأغرته ابنه الله الهيمالايا حتى تزوجته لتنجب منه مما يقضى على الشيطان تاراكا الذي يعيش فساداً في الجبال (١٠٤) .. وكذلك نسب إلى سيفا تجسدات كثيرة حاربت الشياطين واختبارت صدق المقاتلين وفضائل الحكماء .. إلا أن هذه التجسدات لم يكن لها من الانتشار ما كان لتجسدات فشنو .

ومهما يكن من شيء فقد استطاعت كل من الشعنوية والسيفية أن تنتشر بين الهند بفضل احيائها لكثير من الأساطير الهندية القديمة واغفالها الآلهة الفيدية الآرية

مذهب الجينية في الأهمية وفي عدد الأرواح وبنائية الوجود وتجارى الأديان الجديدة في تجاهلها لمكانة الآلهة العليا ولم يربطها بالديانة الفيدية الا تمكها بالكتب الفيدية والبرهمنية وعلى الخصوص اليوبانيشادية ثلاثة دراسة وهيما وأخذت من نصوصها سندأ تعول عليه في التصديق على صدق مبادئ هذا المذهب او ذلك .. وبذلك جمعت المذاهب الهندوكية الستة بين الإتجاهات الدينية والأخلاقية والفكرية التي انارتها الكارفاكية والجينية البوذية والأعكار اليوبانيشادية وكانت أفكاراً هندوكية متطرفة حورت بها الأرض الدينية والفكرية التي فقدتها على أيدي كارفاكا وماهافيرا وبودا وعادت إلى البراهمة السعادة الروحية والفكرية بعد أن غلب لفظ الهندوكية على لفظ الفيدية نظراً لأن لفظ المندوك يناسب إلى كلمة « هندو » التي كانت في الأصل « سندو » وكانت تطلق على سكان السند الذين يعتبرون سكان الهند الأصليين ..

٤ - الفكر الهندوسي

فإذا كان الأساس الشعبي للجينية والبوذية هو عقيدة التناسخ فإن الكارفاكية والجينية والبوذية انكروا وجود الآلة ولم تقبل الروح منها غير الجينية بينما اعتقاد في الأرواح والآلهة له جذور شعبية دعمتها الأساطير على تواли المصور ، ولم يستطع الفكر الحر ان ينزعها من أعماق القلوب والعقول وظللت دائماً تطلب الارضاء مما اثار الغرض لظهور عقدين اعتمدتا أساساً على آلهة اليوبانيشاد من دون آلهة رج - فيدا - أو لاهمها عقيدة فشنو التي أمنت بالله فشنو الذي عرف في اليوبانيشاد بأنه الله الحافظ وأسبغت عليه الشعنوية كل

- | | | |
|-------------------|--|---------|
| Banerjee, A. K. : | The Visnu and The Bhagavata Puranas. (History of Ph., Eastern and Western) op. cit. | (١٠١) |
| Kennedy, V. : | Reserches into the Nature and Affinity of Ancient and Hindu Mythology. London, 1831. | (١٠٢) |
| Basham, A. L. : | op. cit. | (١٠٤) |

الجينية .. فسامكيا ترى أن الوجود مكون من مبادئ أساسين هما الروح « باروشَا purusa » والمادة « براكريتِي prakṛti » .. وان الأرواح لا نهاية العدد خالدة غير متغيرة وت تكون منوعة خالص .. بينما المادة خالدة ايضا وت تكون من جوهر متباين يختلف في مختلف الظاهرات الطبيعية وشتي الكائنات من ثلاثة عناصر أساسية هي :

١ - ساتفا Sattva وهي المسؤولة عن خاصية توازن الكائن وتماسك تكوينه ومبعد استقراره وخيره ..

٢ - راجاس Rajas اي الحركة والانفعال وما يبعثنه من الم وسرور ..

٣ - تاماس Tamas اي الخمود والركود والتوقف التام عن الحركة ..

والعناصر الثلاثة بطبعية تكوينها متنافرة .. والمادة في حالة التوازن لا يظهر فيها هذا النفور الذي لا يظهر الا عندما تحدث تغيرات وت تكون أشياء جديدة .. واللحالة الثانية للروح ان تكون خالية من المادة ولكن حدث اي اختلطت المادة بالروح وقضت على توازن عناصرها فتسبب ذلك في وجود الحياة .. ويرجع اصل الكائنات الى اختلاف مكونات العناصر المادية الثلاثة .. فان النباتات تتكون أساسا من تاماس خاملة بينما يغلب على تكوين الحيوانات راجاس منفعلة .. أما في الإنسان فعنصر ساتفا هو المسيطر (١٠٥) .. الا ان حياة الإنسان الطبيعية خرجت كذلك من المادة ، فهي تتكون من « بوذى » أعظم عضو للفكر والذات والقوى الذهنية الخمس وأعضاء الحواس الخمس والأعضاء المحركة الخامسة والعناصر الدقيقة الخمسة والعناصر التقليلة الخامسة والحالات القليلة حتى تستكمل ٢٤ تكويناً ترجع كلها الى

وامتصاصها ل مختلف الاتجاهات الجديدة في الديانات المعاشرة للفيدية والبرهمنية ولذلك أصبح الهندي في الغالب أما فشنوبا أو سيفيا .. وبذلك انفتحت هذه الديانات النقية في تعاليم اليوهانيشاديه وان ارجعت إليها الاول برهمان الى الوراء والاحت المجال لظهور مذاهب فكرية جديدة لا تتعارض مع اصول الفكر الفيدي وكتبه وتعاليمه وتنسق بالعتقدات الشعبية الأصلية وتحتضن في الوقت نفسه الافكار المناهضة للفيدية ولا تجد فضلا في ان تعارضها من جديد في قالب هندوكي يومن بالتناسخ والكارما ونظام الطبقات ..

ولقد ظهرت ستة مذاهب هندوكلية فيما بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد وان كان ما نعتمد عليه من كتب لمعرفتها يرجع الى دائرة القرون الاولى الميلادية بعد ان تطورت .. ولقد لوحظ ان هذه المذاهب جميعاً تنسب الى افراد معينين على انهم مؤسسوها وان لهم مریدين واباعاً راعوها وطوروها ولم يتمتص رجال الدين جهودهم الفردية في نطاق من التفكير الجماعي واستعملوا بالجملة المنطقي في مناقشة ادلةهم ولم يسلمو بقبول المقادير بدون دليل ..

اقدم هذه المذاهب هو مذهب سامكيا Samkhya الذي تذكر الاساطير ان من شئه هو كابيلا Kapila .. الا ان مؤلفاته هو وتلاميذه قد فقدت ولم يصل اليانا الا مؤلف الشفارا كريشنا Isvarakrishna الذي وضعه سامكيا كاريكا Samkhya-Karika ويرجع عهده الى حوالي القرن الرابع الميلادي .. ويذكر ان هناك جذوراً للمذهب سامكيا (بمعنى يحسب او يعد) في اليوهانيشاد الا انها لم تتضح الا في الجينا .. ومع ذلك لا يمكن ان ننكر ان اصول هذا المذهب مستمدۃ اساساً من ثنائية

ويرجع تأسيس المذهب اليوجي الى باتانجالي Patanjali مؤلف بوجا سوترا Yoga Sutra .. وتشير الاساطير الهندية الى أنه هو باتانجالي النحوى وقد الف الاجراء الثلاثة من بوجا سوترا حوالي القرن الثاني ق.م وان كان المؤلفون الفريبيون يميلون للاعتقاد بان تاريخ بوجا سوترا لا يبعد كثيرا عن الفرون الميلادية الاولى وان كانت اليوجية قديمة قدم الحضارات الهندية ..

ولا تختلف اليوجية في قليل او كثير عن السامكية الا من حيث التطبيق السلوكى .. فاليوجية تؤكد ثنائية الوجود .. من روح ومادة وان تمييز الانسان بين الروح والمادة فيه حلاصن الروح من المادة ، الا ان اليوجية تسن طريقا يمر بشتانى مراحل لتخلص الروح من المادة : (١٠٩)

١ - ان يكتسب اليوجي اولا الفضائل الخلقية ويدعمها بسلوكه فيتجنب العنف (الاهمسا) ويبتعد عن الفسق والخداع والبخل والسلب والتقبق الجنسي .

٢ - لم يعيش في زهد وتعبد يتلو ادعية الكتب الفيدية لتعيين الآلهة على كبح جماح شهواته .

٣ - بعد ذلك يأخذ في ترويض بدنه ويعده لتحمل اوضاع جسدية تعينه على التأمل الطويل .

٤ - يقوم بمجاهدات تمكنه من التحكم في عملية التنفس من شهيق وذفير .

٥ - يقوم كذلك بمجاهدات تصرف حواسه عن الانسياق الخارجية .

الظاهرات الطبيعية المادية (١٠٦) ولكن الروح تزود الحياة الطبيعية بالشعور وتمكن المادة من أن تعرف ذاتها .. فلا تتوصل الى معرفة كاذبة مزيفة لأن معرفة المادة تحول دون معرفة الروح لخصائصها المميزة فلا تصل الى الاستئارة ولا تعرف الخير . وتتفق في اسر المادة التي تخضعها للتباخ وتجعلها تقاسي آلام الحياة .. ولكن تتحرر الروح من المادة يجب ان يصل الانسان اولا الى حالة « ساتغا » حتى يسود العضو « بوذى » بالحق والصواب ، فتحرر الروح يتم بمجرد أن تميز بين ذاتها والمادة .. والروح لا يمكن معرفتها في ذاتها لأن عضو المعرفة « بوذى » مكون أصلا من عنصر مادي .. وتحرر الروح لا يمكن ان يتم بالقرابين او بمحاولة تحقيق وحدانية الذات مع برهمان فليس هناك مكان لفكرة الله في مذهب سامكيا .. ان لم ينكر فكرة الله في ذاتها .. وان كل من يستطيع ان يميز بين الروح والمادة وتسود فكره قوة بوذى المستنيرة ويتخلص من المعرفة المادية المزيفة يمكنه ان يتحرر من التباخ ومن الحياة سواء اكان من السودرا أم من البراهمة (١٠٧) ولكن الذي يتباخ ليس الروح فقط حيث أنها منتشرة انتشارا كليا في الجسم وغير منفصلة عنه ، انما الذي يتباخ هو الأجسام الدقيقة وليس الأجسام الكثيفة التي ترتبط دائما بالروح ولا تنفك الا بالخلاص والتحرر .. وما الموت والحياة الا تغير في حالات كثافة الجسم (١٠٨)

اما المذهب اليوجي فهو المكمل لمذهب « سامكيا » الذي يوقف « بوذى » عند مجرد ادراك التمييز بين المادة والروح بينما اليوجية تبين الطريق السلوكي الذي يمكن القوة الوعائية من ادراك مثل هذا التمييز ،

| | | | |
|---------------|---|--|---------|
| Smith, F. H. | : | op. cit. | (١٠٦) |
| Hiriyanna, M. | : | The Essentials of Indian Philosophy, op. cit. | (١٠٧) |
| Guenon, R. | : | Man and his Becoming according to the Vedanta, Luzac, London, 1945. | (١٠٨) |
| Guenon, R. | : | Introduction to the study of the Hindu Doctrines, Luzac, London, 1945. | (١٠٩) |

الروح مكون من ارواح شاعت في مختلف مكونات الطبيعة فكانت الكائنات الحية وعلى رأسها الانسان الذي يولد ويموت .. وهن موته يتخل جسده الى ذرات ساكة وتنتظر روحه ولادة جديدة تحدد بانفعال الكارما في الحياة السابقة (١١) .

ولم يضف المذهب الرابع ، مذهب « نيابا » Nyaya شيئاً كثيراً الى مذهب فياسيشيكا .. ومؤسسة هو « جوتاما » Gotama الذي ظهر في القرن الثالث قبل الميلاد .. وهو يعتقد نفس النظرية التربوية وثنائية الوجود من مادة وروح وتعدد العناصر وتعدد الارواح .. وليس في كل من فياسيشيكا ونيابا مكان لاله وإن كانوا تخدان من الاقوال الفيدية سنداً للمعرفة الحقة .. الا ان « جوتاما » تعمق بعض الشيء في مصادر المعرفة والبحث المنطقي والاستدلال المقارن ورأى ان المعرفة غير الصحيحة هي المعرفة التي تعتمد على الذاكرة والظن والمناقشات الافتراضية وأن المعرفة الصحيحة هي التي تعتمد على تطابق المعرفة مع عالم الواقع واتفاقها مع طبائع الاشياء من ناحية وتبوت نجاح تطبيقها العملي من ناحية أخرى لأنه اذا لم تتفق المعرفة مع طبائع الاشياء وتؤدى الى نتائج غير فاشلة تكون معرفة غير صحيحة ..

بينما المذهب الخامس ، مذهب « بورفا ميمانسا » Purva-Mimansa الذي أسسه « جايمني » Jaimini والـ دستوره الاول Mimansa-Sutra « ميمانسا سوترا » حوالي القرن الرابع قبل الميلاد ، يذهب الى ان كلمات الفيدا لم تصدر عن الله او انسان انما هي انبعثت من ذاتها وووجدت منذ الازل وتبقى للابد .. حقيقتها مطلقة .. ينبعي معرفتها والامتناع لا امرها ونواهيه .. ويجب اداء فرائضها من صلوات يومية واستحمام عند

٦ - واذا ما تحقق كل ذلك يبدأ في مرحلة السامل .

٧ - تعود التأمل المركز .

٨ - بلوغ مرحلة التأمل العميق المركز المجرد الذي لا يرتبط بالعالم الخارجي وهي نهاية جهاد الطريق اليوги اذ يتحقق فيها خلاص الروح من المادة ، فالسامكية واليوجية مذهبان يميلان للواقع ويؤمنان بوجود المادة والروح وبيان الارواح كثيرة ولا يجعلان للالهة الا مكانة ثانوية ويحصرانها في الأد晦ة لتساعد على بلوغ الهدف الحقيقي .. ولذلك فانهما اقرب الى الجينية منها الى الفيدية .

والـ مذهب الهنديكي الثالث هو مذهب فياسيشيكا Vaisesika وهو كذلك متاثر بالفلسفة الجينية ولا يكاد يختلف عنها الا بایمانه بال تعاليم الفيدية واعتباره ايها مصدرأ من مصادر المعرفة .. ان مؤسسة « كانادا » Kanada يرجح انه ظهر في القرن الثالث قبل الميلاد وان كانت الاساطير تجعله من المعاصرين Sutra-karada لبودا .. ومؤلفه سوترا كانادا يضم مذهبها واقعياً يرى أن عالم الطبيعة مكون أساساً من ذرات ذات دقة غير مرئية ولأنهاية العدد خالدة .. تنتشر فيها ارواح خفية غير مرئية فقتالت الالام والمعداب ولا راحة لها الا بالتحرر من سجن المادة ، وسبيل ذلك هو المعرفة ..

وهناك معرفة صحيحة وأخرى مريضة .. المعرفة الصحيحة نصل اليها عن طريق الاستدلال وال تعاليم الفيدية ونقدنا هذه المعرفة الى ان الوجود مكون من تسعة ذات جواهر .. فعالم الطبيعة مكون من مادة ذات خمسة عناصر هي التراب والماء والنار والهواء والاخير ومن زمان ومكان ومن الاعضاء الذهنية ، وعالم

وان ما نضمه من معارف هي حقائق مطلقة .. فتضع «برهمان» على قمة الوجود وترى أن سعادة الإنسان في اتحاد روحه ببرهمان عن طريق المعرفة اليوبانيشادية (١١٢) ولكن علاقة برهمان الروح الكبري بالروح الفردية من ناحية ومعالم الطبيعة من ناحية أخرى دلت إلى تفسيرات فلسفية متعددة أدت إلى ظهور مذاهب أخرى حاول كل منها أن يحدد علاقة برهمان بالوجود أما على أساس من وحدة الكون أو على أساس من امكانية اتحاد الروح بال المادة بصورة أو بأخرى . الا أن هذه المذاهب جعلت للإله برهمان حقيقة كبرى لعبت دورا هاما وأساسيا في تحقيق الكمال الدائني للإنسان وبذلك أوقف مذهب «أوتارا ميمانسا» الفكر الهندي القديم على حافة وحدة الوجود التي أصبحت فيما بعد نهاية مطاف التفكير الهندي وهي تحتاج إلى بحث طويل مستقل .

خسوف القمر ونقيب القرابين للإله حتى يتتجنب الفرد متابعته الحياة من أيام وأحزان ولا يقع في الائم الذي يجلب الشر .. وبعد الموت تنفصل روحه عن جسده وتنتهي متابعته الحياة . ولم تهتم بورثا ميمانسا بالحقيقة الإلهية ولم يعنيها التنازع في قليل أو كثير .. وإن الخلاص من الحياة يقوم أساسا على إداء الشعائر .. وإن كانت تلزم الجميع باداء الواجب بالنسبة للأسرة والأهل والاصدقاء وجماهير الناس (١١١) .

الا ان مذهب «أوتارا ميمانسا» Uttara-Mimansa الذي وضع أساسه «باداريانا» Badarayana في مؤلفة «في دانتا سوبرا» Vedanta Sutra في فترة ما بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد .. يعتمد أساسا على كتاب اليوبانيشاد ويرى أنه من وحي بها من السماء

* * *

-
- | | | |
|--------------------|--|---------|
| Ramaswami, V. A. : | The Purva Mimansa (History of Ph. Eastern & Western) | (١١١) |
| | op. cit. | |
| Smith, F. H. : | op. cit. | (١١٢) |